الإسلام والمسلمون في الأدب العالمي



محمود قاسم

الإسلام والمسلمون في الأدب العالمي

تأليف
محمود قاسم



الإسلام والمسلمون في الأدب العالمي

محمود قاسم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٩٧ ٤

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

قبل أن تقرأ ...

في هذا الكتاب يمكن أن تجد الجانب الآخر من الحقيقة ... الجانب الذي لا نعرفه بشكل واضح حول الإسلام والمسلمين في منظور الكثير من أدباء العالم المعاصر.

* * *

فقد تَنبهنا دومًا على آراء نقلت إلينا الصورة السلبية حول هذا الموضوع؛ حيث نظر الكثيرون إلى الغرب دومًا بمنظور العداء، وتعاملوا مع المستشرقين على أنهم قدَّموا الكثير من الصور السلبية حول الإسلام والمسلمين.

وفي هذه المقدمة، أعترف أن ما كتبته هنا حول روايات وكتب، عن الجانب الإيجابي، إلى حدٍّ ما، هو حصيلة العديد من القراءات التي قمت بها على فترات طويلة متقطعة، وقررت أن أقدِّمها في كتاب في هذه السلسلة العريقة، التي قرأنا فيها لعتاة القلم والكتابة.

قبل أن أتحدث عن فحوى هذا الكتاب، فقد شاهدت في العديد من الأفلام الروائية المصرية مشاهد تُبين مدننا، وقد افترشتها القمامة الكثيفة والتخلف الحادُّ، وكانت بمثابة ديكور يكشف الواقع، وساعتها تساءلتُ: تُرى هل لو رأينا مشاهد أخفَّ حدة في أفلام عالمية؛ فماذا سيكون رد الفعل؟ سوف نَتهم صُنَّاع الأفلام أنهم ينظرون إلى الجانب المشوَّه في حياتنا، وقد دفعني سؤال مشَابه إلى محاولة للبحث عن الصور السلبية في حياتنا التي ظهرت في الإبداع العالمي مثل: الإرهاب، والتطرف، والعنف، والتخلف؛ فهل هي موجودة فوق أراضينا، أم أن مَن صوَّر وكتب عنها، هو الذي صنعها ... وهل حاولنا أن نغيِّر الصورة، أو نحسِّن منها، أم أننا تركناها تتفاقم؟

على كُلٍّ فإن ما جاء في هذا الكتاب بعيد تمامًا عن الصورة التقليدية التي تكوَّنت في أذهان الكثيرين مِنَّا، فسوف نرى كيف صوَّر أدباء من كل أنحاء العالم كيف أن المسلمين متحضرون، صنعوا وشاركوا في بناء الحضارات قديمًا وحديثًا، وأغلب هذه الكتابات سطَّرتُها منذ سنوات قليلة، لم تكن الأخبار الرئيسية في نشرات الأخبار العالمية والعربية حول الإرهاب، والتفجيرات التي تُحدِثها فصائل إسلامية في أنحاء متطرفة من العالم، وبرغم ذلك فلدينا نماذج مشرِّفة من لغات متعددة، وثقافات متنوعة تعترف أن المسلمين قوم تحضُّر، وأن الإسلام دين يدعو إلى المعرفة، والتقوى، والتحضر.

نعم، هو كتاب متنوع، مصادره الأساسية موجودة في اللغة الفرنسية، والإنجليزية، واليونانية، والإسبانية، والروسية، وغيرها من اللغات، بما يعني تعدد الثقافات، وقد جاء الكتَّاب بأنفسهم إلى أرضنا وعاشوا فيها، وكتبوا رواياتهم ومؤلفاتهم من منظور الاحتكاك مع ثقافتنا، مثلما فعل الإسباني «خوان جوبتسولو» الذي عاش في القاهرة سنوات عديدة، وكان دائم التردد عليها، كما أقام في المغرب لفترات متقطعة، وأيضًا الفرنسية «إيزابيل أبرهارد» التي اعتنقت الإسلام وأقامت في الجزائر، وكتبت عنها. والكاتب الكندي من أصل سريلانكي الذي عاش في مصر وكتب روايته «المريض الإنجليزي» التي تدور أحداثها حول المازي الذي سميت باسمه منطقة ألماظة في القاهرة، وهي رواية عاطفية تدور أحداثها في أثناء الحرب، وحصلت على جائزة بوكر، وتحوَّلت إلى فيلم حصل على العديد من جوائز الأوسكار، كما أن الروائي الروسي «باخيش بابايف» كتب رواية عن المليك المصري الشاب «توت عنخ آمون»، وكتب الروائي الأسترالي «دافيد بالدرستون» حول «الطريق إلى دمشق»، أما الكاتب اليوناني المشهور «نيكوس كازانتزاكيس» فقد جاء إلى مصر عام ١٩٢٦م، ودوَّن في كتابه «رحلة إلى مصر» تفاصيل رحلته إلى سيناء، فرآها أرضًا مقدسة لأصحاب العقائد الثلاث، وكان كتابه بمثابة إضافة لأعماله الشهيرة «زوربا اليوناني» و«الإغواء الأخير للسيد المسيح»، و«المسيح يُصلَب من جديد» و«الإخوة الأعداء».

ومن المدهش حقًّا، تلك الرؤى المستقبلية التي تخيَّلها الكاتب الفرنسي جيرار دوفيييه في رواياته عن الشرق الأوسط، وهي روايات بوليسية من نوع التجسس؛ ففي أعماله عن المنطقة العربية، تخيَّل كيف تكون نهاية كل من أنور السادات، ومُعمَّر القذافي؛ حيث جاء التخيُّل غير بعيد عما حدث في الواقع، وقد كتب روايته «مؤامرة في القاهرة» فكرة قريبة من اغتيال الرئيس أنور السادات، أما في روايته «الطريق إلى طرابلس» حول نهاية معمَّر القذافي فقد نُشِرت قبل ثلاثين عامًا مما حدث في ليبيا، ومثل هذه الرؤى المستقبلية في

روايات شبيهة لم ترَ مثيلًا لها في أدبنا العربي الذي كثيرًا ما يقف أصحابه ضد الحاكم فقط بعد سقوطه مثلما حدث في السنوات الأخيرة في بلادنا.

وقد كتب عن المسلمين — وأحوالهم — أدباء عالميون بارزون، منهم الكاتب «جوزيف كونراد» واحد من أهم الروائيين البريطانيين في النصف الأول من القرن الماضي، وصاحب رواية «قلب الظلمات»، وهو لم يكتب عن المسلمين بشكل مباشر، لكنه وصف الحُجاج الذين ركبوا سفينة في طريقها إلى الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج في روايته «لورد جيم»؛ فكان الوصف بمثابة الصورة الحقيقية عن طيبة المسلم، ونُبله، وسكينته، والجدير بالذكر أن أغلب أعمال كونراد قد تُرجمَت إلى اللغة العربية، خاصة ضمن سلسلة «الألف كتاب».

في بعض الأحيان، كانت الكتابات بقلم أصحابها المسلمين، مثل الروائية التركية «كينزة مراد»، التي زارت مصر أكثر من مرة، وذلك في روايتها «فيما يخص الأميرة الميتة»، وهي رواية حديثة حول أمها، ابنة أحد آخر السلاطين العثمانيين.

ومن الروايات المهمة المعاصرة أيضًا، هناك «الطبَّالة الصغيرة» تأليف الروائي البريطاني «جون لوكاريه»، وهو أحد الكتَّاب القلائل الذين جعلوا من رواية التجسس أدبًا حقيقيًّا، كما أن رواياته ظلت لسنوات الأكثر مبيعًا في العالم، ولم تُترجَم له أيٌّ من رواياته إلى اللغة العربية، ومنها «الجاسوس الذي أتى من الصقيع» حول الهروب عبر جدار برلين، وكانت رواية «الطبَّالة الصغيرة» هي العمل الأدبي الأوحد الذي تُرجِم إلى اللغة العربية في روايات الهلال، حين كنتُ سكرتيرًا للتحرير بها، فتُرجمَت كاملةً حول الصراع العربي الإسرائيلي. وقد كشف الكاتب أن المناضل الفلسطيني ليس إرهابيًّا، كما يُشاع في الإعلام الغربي، لكنَّه يعمل على إعلاء قضيته الوطنية، ويصف الكاتب خِسة عميل الموساد في اصطياد خصومه من المناضلين في مدن أوروبا.

وفي وسط الحملة الضارية في فرنسا ضد ثوار الجزائر الذين ناضلوا لتحرير بلادهم من الاستعمار الفرنسي؛ فإن كاتبة بارزة هي «كلير أتشرلي» تنشر روايتها «إليز أو الحياة الحقيقية» التي تصف فيها قصة حب بين فتاة فرنسية فقيرة، وشاب جزائري يُناضِل مع جبهة التحرير الجزائرية، تم اعتقاله؛ فقررت أن تستكمل مسيرته، هذه الرواية حصلت على جوائز مرموقة في فرنسا، وكانت شاهدًا على أن الصورة المألوفة للعربي والمسلم غير صحيحة.

هذا هو كتابنا الذي نقدم فيه العديد من النماذج التي يمكن أن نجد الكثير من مثيلاتها في الأدب العالمي المعاصر، كي نتأكد أن هناك توازنًا بين الرؤى العالمية حول

الإسلام والمسلمين في الأدب العالمي. ولا نستطيع أن نؤكد أننا قدَّمنا كافة النماذج الأدبية في هذا المضمار؛ فهناك روايات لها شهرتها مثل «لورنادون» وغيرها، ولا شك أن المجال يتسع لعمل موسوعي ضخم في هذا المضمار.

محمود قاسم

إيزابيل أبرهارد

المدينة هي تونس ... الكاتبة هي «إيزابيل أبرهارد» ... والرحلة بالغة الغرابة، ليس فقط فيما يتعلق بالمدن التي قررت أن تتجوَّل فيها، رغمًا عنها أو طواعية، ولكن أيضًا رحلة الحياة التي عبَرتها الكاتبة إيزابيل أبرهارد خلال عمرها القصير. وبدت كأنها عاشت مجموعة من الحيوَات البالغة الطول.

* * *

تنتمي الكاتبة إلى ثقافات عديدة؛ فهي مولودة في سويسرا عام ١٨٧٧م في عائلة من أصل روسي. وكي نتوقف عند ارتباطها الحياتي بعدة مدن، أغلبها عربي؛ فيجب الرجوع إلى ما كتبته عن نفسها قبل أن تموت عام ١٩٠٤م، وهي في السابعة والعشرين من العمر: «لم يوجد الشخص الذي عاش مثلما عشت. فقد كنتُ أحيا يومًا بيوم، وقد دفعني هذا إلى الطريق الذي اخترته لنفسي. فإلى هذا الحد كانت مسألة وجودي بالغة الأهمية.»

وقد ارتبطَت حياة الكاتبة بالمصادفة والمغامرة. لكن كتابتها تبرهن لنا عكس ذلك. فلم تكن «إيزابيل» تترك لنفسها فرصة اتخاذ القرارات؛ ولكنها كانت تتجه، بشكل غريزي، نحو الحدث. وقد ساعدها في ذلك طبيعتها وسماتها العامة التي كانت نتيجتها الترحال في العديد من المدن العربية الكبيرة والصغيرة؛ منها تونس والجزائر، وغيرهما من المدن.

كانت البداية غامضة بالنسبة لـ «إيزابيل أبرهارد»؛ فلم يعرف أحد مَن يكون أبوها الحقيقي. قيل إنه طبيب تركي؛ لكن الدلائل تشير إلى أنه الروسي «ألكسندر تريموفسكي» الذي كان وصيًّا عليها، ومعلمًا لها. وقد قيل إنه تبناها وأعطاها اسمه، وحباها برعاية خاصة لم يحظَ بها أولاده الشرعيون.

وقد علَّمها كيف تواجه صعوبات الحياة. ولولا ما تعلمته منه ما أمكنها اختراق الصحراء العربية، والإقامة في مدنها الصغيرة، وأن تحيا حياة سهلة في الجزائر وتونس. وهي تنفض عن نفسها كافة ألوان البهرجة والزخرفة.

لقد اختارت أن تتصرف كرجل، وأن ترتدي ملابس الرجال الخشنة. ليس فقط في منزلها، ولكن عندما تتواجد بين الناس. فقد تعلَّمت أنها يمكن أن تتصرف بحرية أكثر كلما ارتدت ملابس الصبية والرجال.

في طفولتها، قام الأب بشراء حصان لابنته، وراح يعلِّمها كيف تستخدمه. وقد استفادت تمامًا من الفروسية التي تعلمتها وهي تخترق الصحراء ومدنها. كما أن الأب هو الذي علَّمها قراءة وكتابة اللغة العربية الفصحى. والغريب أن الأب لم يكن يسمح لابنته الاتصال بالسويسريين، الذين تعيش أسرته فيما بينهم ... كما كان يُكِن ازدراءً ملحوظًا للبرجوازية الأوروبية.

وعندما شبت «إيزابيل» عن الطوق، صحبتها أمها إلى مدينة الجزائر ... وهناك أعلنت الأم وابنتها اعتناقهما الإسلام. وفيما بعد أصيبت الأم بمرض دفع الأب للحضور إلى شمال أفريقيا، وهناك وجد ابنته مصابة بحالة من الجنون والصرع نتيجة لعدم قدرتها على الوقوف إلى جوار أمها في محنتها الصحية، أو تخفيف الألم عنها.

وفيما بعد، سافرت «إيزابيل» إلى تونس لقضاء فترة نقاهة على نفقة السلطات الفرنسية. وهناك راحت تعيش كما يحلو لها، فقد كان الآخرون يتعاملون معها كصبي. لذا خالطت الرجال، ونامت وسط جنود الاحتلال الفرنسي دون أن ينتبهوا إلى حقيقتها.

وعقب وفاة أبيها في سويسرا، اكتشفت أن عليها أن تترك كل مظاهر الفخامة التي أُتيحت لها، وعادت مرة أخرى إلى شمال أفريقيا، واختارت هذه المرة الإقامة في تونس ومدنها. دون أن تكون لديها أدنى فكرة عما يمكنها أن تفعله، أو عما ينتظرها. وراحت تدوِّن انطباعاتها عن مدينة تونس وسكانها. وكيف عاش بعض أبناء المدينة في منازل منحوتة في الجبال اتقاء شر الحر في الصيف.

عانت «إيزابيل أبرهارد» في هذه الفترة من ظروف مالية صعبة؛ فعادت إلى فرنسا وقررت أن تكون كاتبة، وفي باريس ابتسمت لها الظروف الحياتية بشكل ملحوظ، خاصةً حين التقت بالماركيزة «مور» التي مات زوجها في ظروف غامضة أثناء حملة عسكرية في جنوب تونس. وقد كانت الماركيزة تود أن تعرف الظروف التي مات فيها زوجها. ورأت أن «إيزابيل» هي الشخص المناسب الذي يقوم بالرحلة في الصحراء، ووقَّعتا معًا اتفاقًا مفاده

أن تقوم الفتاة بالعودة إلى تونس. وبالفعل فقد بذلت «إيزابيل» كافة مساعيها لمعرفة أسباب مصرع «الماركيز»، واكتشفت أنه مات منتحرًا.

ساعدتها تلك الرحلة التونسية على الاسترخاء النفسي والمادي: «ما أحلى أن يخلو المرء إلى نفسه في الصحراء. فليس هنا ثمن للاسترخاء.»

كما أن السيولة المالية ساعدتها بدورها أن تكتب المزيد من الكتب والكتابات التي ظلت تنشدها من قبل. وقررت العودة إلى الجزائر، وأجَّرت منزلًا في مدينة «العواد» الجزائرية، وتفرغت للكتابة والتأليف. خاصة عن المدن العربية والأماكن والناس.

وفي مدينة «العواد» بدأت «إيزابيل» تواجه المتاعب مع السلطات الفرنسية، التي تعاملت معها بحذر، وكأنها جاسوسة للمناضلين العرب. وراحوا يرقبونها بحذرٍ شديدٍ، لكن أحدًا لم يتوصل إلى شيء ملموس، بل إن حدثًا غريبًا جعلها بعيدة أكثر عن هؤلاء الفرنسيين، حينما حاول أحد الجزائريين أن يشج رأسها بسيفه، فأصابها في ذراعها. وعندما قبضت السلطات على الرجل وأبرأته «إيزابيل» أصبح صديقًا لها.

ولأن الرجل لم يكن مرغوبًا فيه بالمرة؛ فإن السلطات الفرنسية حاولت إبعادهما عن الجزائر. فقدَّم الرجل، واسمه «سليمان»، طلبًا للسماح بالزواج منها. وعندما رفضت السلطات الطلب لم تجد أمامها سوى العودة إلى فرنسا. وعلمت أن السلطات قامت بالقبض عليه وتقديمه إلى المحاكمة.

وقررت أن تكتب عنه، وامتلأت الكتابة بوصف المدينة التي افتقدتها كثيرًا، وبدت مصابة بأشد حالات الحنين تجاه الجزائر و«العواد»: «إنها ليست رمالًا، بل هي حبات من الذهب الخالص. وليست بيوتًا، بل هي الدفء الإنساني الذي طالما حلمت به.»

وأثناء الكتابة، قدمت «إيزابيل» العديد من الاحتجاجات من أجل إطلاق سراح «سليمان»، لكن كل محاولاتها باءت بالفشل. وكان عليها مواجهة مشكلة جديدة، وهي أن النقود التي أخذتها من الماركيزة قد نفدت. فرضيت بمرتب بسيط، واستكملت الكتابة والتأليف. وأخذت تكتب رسائل إلى «سليمان» وهو في السجن. واعتبر النقَّاد أن هذه الخطابات بمثابة تراث أدبي بالغ الرُّقي.

وبعد أن أطلقت السلطات سراح «سليمان» أبحر إلى «مارسيليا»، في عام ١٩٠٢م، وسرعان ما أعلنا زواجهما بعد لقاءٍ حار للغاية. وتم الزواج في جامع مارسيليا. وفيما بعد عاد العروسان إلى مدينة حبهما مرة أخرى. تلك المدينة التي كانت مصدر الوحي لكل كتاباتها.

راحت «إيزابيل» تجري الاتصالات بالعديد من الناشرين. واستطاعت أن تنشر كتابها الأول «الأخبار». وقد آمن الناشر «باروكان» أنه أمام شخصية موهوبة. لذا راح يطلب منها كتابة المقالات بشكل متتابع. وقد ساعد ذلك العروسان أن يتخلصا من العثرات المالية التي كانا يواجهانها، وقد أثار هذا الموقف قوات الاحتلال الفرنسية، فراحت تترقب سلوكهما وتحاول الإيقاع بهما.

كان أول شيء هو إبعاد زوجها عنها، وتم إرساله إلى الجنوب. وأصابت الحمَّى الزوجة وهي تعاني من الوحدة. وعندما تماثلت للشفاء راحت تكتب عن أخبار وسلوك الجيش الفرنسي في الجزائر، ولم يكن هذا أمرًا يسرُّ الفرنسيين بالمرة.

وانتقلت الكاتبة «إيزابيل أبرهارد» إلى مدينة عربية جديدة. وهي «عين الصفراء» في المغرب، وهناك عاشت تجربة قاسية. فقد كانت تنام ليلًا في المقاهي. وكتبت حول هذه التجربة تقول: «هناك شيء ما يشدني إلى هذا العالم، تُرى هل أنا امرأة ثائرة؟ ... يا لها من فرحة أن يقع المرء على شيء يثير البهجة. فيرفض العبودية والتشرذم، ويعبر الحياة وهو يشعر بحريته كأنه عصفور يحلق في الفضاء.»

لم تعِش الكاتبة في مدينة عربية واحدة، بل انتقلت بين العديد من المدن الصحراوية البسيطة، وبعد أن انتهجت الصوفية، توجهت عام ١٩٠٤م إلى مدينة «قندسا» المغربية من أجل مقابلة المتصوفين في المدينة. خاصة المترددين على زاوية «سيدي إبراهيم ولد محمد»؛ ففي هذا المكان ملتقى سنوي للمتصوفين الذين يأتون من كل فجٍّ بشمال أفريقيا. وفي تلك الفترة كانت المنطقة تشهد توترات متلاحقة مع الاستعمار الفرنسي. لذا تم القبض على الكاتبة. وأُودعت الحبس لمدة أسبوع من قِبل رجال سيدي إبراهيم الذين تصوروها جاسوسة تعمل لحساب الفرنسيين. ثم ما لبثوا أن أطلقوا سراحها، وكان السجن قاسيًا عليها في أثناء الليل ببرودته. فأصابتها حمى شديدة ما لبثت أن أسلمتها إلى بارئها، تاركة وراءها كتابات متميزة عن المدن العربية الصغيرة التي عاشها فيها.

كلير أتشريللي: أليز أو الحياة الحقيقية

«كلير أتشريللي» روائية فرنسية معاصرة، مولودة عام ١٩٣٤م، وهي كاتبة مناضلة صاحبة موقف ورأي لمناصرة حركات التحرر في العالم.

* * *

والكاتبة عانت الكثير في حياتها الخاصة، لكن من المهم الإشارة إلى أن أباها كان مناضلًا ضد الاحتلال النازي لفرنسا أثناء الحرب العالمية.

وقد نشرت كلير أتشرللي ثلاث روايات هي «أليز أو الحياة الحقيقية» عام ١٩٦٧م، و«حكاية كليمانص» عام ١٩٧٣م، ثم «شجرة مسافرة» عام ١٩٧٨م.

وروايتها الأولى التي تتحدث عنها الآن حصلت على جائزة الأدب النسائي في نفس عام صدورها. وهي أقرب إلى تجربة ذاتية مرت بها حين كانت تعمل موظفة صغيرة بإحدى شركات السيارات، وتعرَّفت على شاب جزائري من المناضلين ضد الاحتلال الفرنسي لبلاده.

هذا الشاب العربي المسلم اسمه في الرواية «أرزقي»، وهي تلتقي به في المصنع الذي تعمل فيه مع أخيها «لوسيان».

تعيش أليز، بطلة الرواية في باريس، وهي مدينة تستهلك الكثير من الجهد والنقود؛ لذا عليها أن تعمل، وفي المصنع تلتقي بشاب جزائري في الثلاثين من العمر، ومن خلال تعاطفها مع قضية بلاده وسلوكه، يرتبطان ارتباطًا عاطفيًّا قويًّا؛ لكن الزمن يتربص بهما حين تندلع ثورة العمال، ويموت الأخ لوسيان في أثناء المظاهرة.

أما الشاب المسلم «أرزقي»؛ فإن الشرطة الفرنسية تلقي القبض عليه.

تتحدث أليز عن حبيبها «أرزقي» وتقول: «كان جميلًا صلدًا، يبدو أنه لا يعرف الخجل. لكنه يبدو أقل شبابًا من الآخرين.»

لقد دعاها إلى احتساء فنجان من القهوة بمناسبة عيد ميلاده الحادي والثلاثين، ترى أنه يحمل صفات الإنسان الحنون الذي يسعى نحو الكمال؛ حيث تتعلم منه بعض الكلمات العربية، حول ماذا يعني الواجب، وماذا تعني كلمة «أحبك».

أما هو فيتعلم منها الحب والحنان، إنها تحاول من خلاله أن تُفهِم زميلاتها مشكلة الجزائر التي تود الاستقلال عن فرنسا، كي تصبح دولة لها سيادتها واستقلالها بعد مائة وثلاثين سنة من الطغيان والاحتلال.

يقول لها «أرزقي»: «الفرنسي يحب الجزائر كما يحب الإنسان الجوَاد الذي يمتطيه، النضال هو أن ينتمي المرء إلى بلد مطحون.»

ترد عليه: «لو لم أعمل إلى جانب العرب أو الزنوج، وإذا لم أدافع عنهم؛ فماذا أفعل؟»

وهي تتحدث إلى إحدى صديقاتها قائلة: «كنت مع شاب عربي يكفي إلقاء نظرة إليه كي تفهمي كل شيء.»

وفي مكان آخر من الأحداث التي تشتدُّ بقوة تصرخ في وجوه الفرنسيين قائلة: «هل تريدون أن تنتشوا بمعاناة الجزائريين، يجب أن نحدثهم عما يهمهم. لقد سقط شاب جزائري.»

لقد خسرت أليز أقرب الناس إليها عندما سقط أخوها صريعًا، ثم بعد أن مات سندها الإنساني تجد الشاب المسلم «أرزقي» الذي يؤدي صلواته، ويبدو مسالمًا، لكنه لا يمكن أن يقف سلبيًّا إزاء الاحتلال الفرنسي لوطنه.

وفي النهاية فإن أليز تعود إلى مدينتها الصغيرة في الجنوب تنتظر أن يعود إليها حبيبها بعد خروجه من حيث قبضوا عليه.

هذه الرواية تحوَّلت إلى فيلم إنتاج مشترك بين الجزائر وفرنسا عام ١٩٧٢م.

مايكل أونداتجي: المريض الإنجليزي

«المريض الإنجليزي» ...

اسم سيعيش طويلًا في تاريخ الإبداع الحديث، فالرواية كتبها أديب من سيريلانكا يسمَّى «مايكل أونداتجي» M. Ondajee، نال عنها جائزة بووكر عام ١٩٩٢م، والفيلم أخرجه «أنطوني مانجيلا»، وفاز بجائزة الأوسكار عام ١٩٩٧م، تدور أحداثه في مصر ... وتم تصويره في تونس، والشخصية الرئيسية فيه هو «المازي» الذي صار «ألماظة»، وهو اسم حي شهير في منطقة مصر الجديدة.

* * *

المكان هو القاهرة في العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين، والمازي هو واحد من أربعة أصدقاء جمعتهم صحراء القاهرة التي صارت فيما بعد أحياء راقية، أولهم الأمير كمال الدين، وأحدهم هو المازي الذي يقع في علاقة حب ممنوعة مع صديقة له.

يتساءل المازي قائلًا:

«ما هو الشيء المريع فيما فعلته؟ ألا تغفر للعاشق كل شيء؟ تغفر له أنانيته، رغبته، رياءه، طالما نكون نحن أعمدة ذلك، بوسعك أن تتعرف على امرأة مكسورة الجناح، وأن تعشق امرأة أصابها العمى، فهي حتمًا سوف تمدك بطاقةٍ ما.»

ويمكن أن نقول إن الفيلم قد قام بتكثيف الكثير من الأحداث المتزاحمة، في قصة واحدة قادمة من الماضي، ونحن نرى في الفيلم كيف كانت القاهرة أثناء تلك الحقبة مدينة رملية بها الكثير من البنايات الفخمة التي يرتادها الأجانب لكن العرب هنا غير موجودين إلا على الهامش.

فهناك مجموعة من العمال العرب الذين يذهبون لأعمالهم في الصحراء تنقلب بهم سيارتهم، ويموت الكثير من منهم في مشهد يثير الخفقان والألم، والكاتب ثم المخرج من بعده لا يضع في حسبانه أن يصوِّر المصريين أو العرب الذين يعيشون من حوله قدرَ اهتمامه بتصوير الأجانب في القاهرة.

يقول الراوية، إنه بعد هيرودوت، الذي جاء ذكره مرارًا، قلَّ اهتمام العالم الغربي بالصحراء العربية طوال مئات الأعوام، وحتى بداية القرن العشرين: «إن رحلتي عبر الصحراء الليبية من «سِرت» في المتوسط إلى «العبيد» في السودان تمت في أحد المسارات القليلة لسطح الأرض، والتي تمثِّل عددًا متنوعًا من التضاريس الجغرافية الممتعة.»

وفوق هذه الصحراء الممتدة من القاهرة، حتى ليبيا تدور أغلب أحداث الفيلم والرواية؛ فبعد سقوط الطائرة بالرواية، فإن البدو الطيبين يلتقطون المريض المحروق الجسد، ويطيبونه على طريقتهم مما يخفف هذه المأساة والآلام المبرحة التي يشعر بها؛ وذلك تمهيدًا لنقل المصاب إلى مستشفى إيطالية في أكتوبر ١٩٤٤م.

وهذه الصحراء العربية هي البطل الرئيسي للأحداث؛ فهي التي جمعت كل هؤلاء الأشخاص الذين جاءوا، حسب الرواية، لأسباب متعددة؛ فهناك مهندس المسح الصحراوي الذي يردد: «نحن مولَعون بالصحراء.»

هذه الصحراء يمكنها أن تتحول إلى الكثير من الكثبان الرملية، وتستوعب الكثير من قصص الحب والخطايا وقصص الحرب، كما أنها تتيح لساكنيها فرص التطهر والتحول إلى الأحسن.

جانيس إليوت: الحياة على النيل

للروائية البريطانية الشهيرة «أجاثا كريستي» روايات عديدة تدور أحداثها في بغداد ودمشق والقاهرة، ومن أشهر هذه الروايات «الموت على النيل» التي تدور أحداثها فوق عبَّارة سياحية تنتقل بين مدينتَي القاهرة وأسوان.

* * *

وفوق هذه العبَّارة، يتم قتل عروس شابة تزوجت حديثًا من شاب بريطاني ويأتي المحقق «بوارو»، ويضع تحت ظلال الشكوك مجموعة من البريطانيين الذين لدى كل منهم الدافع للتخلص من العروس.

كانت اللغة السائدة في هذه الرواية هي القتل والعنف والجريمة والشكوك والاتهامات أُسوة بأغلب روايات «أجاثا كريستي»، وقد تم تحويل هذه الرواية إلى فيلم سينمائي قامت ببطولته مجموعة كبيرة من نجوم السينما عام ١٩٧٨م.

وقد خلَت الرواية تمامًا، والفيلم أيضًا، من وجود الشخصية العربية إلا من بعض المهمَّشين مثل الخدم فوق العبَّارة، أو بعض من سكان النوبة بين أعمدة الآثار في الأقصر وأسوان.

إلا أن التجربة قد بدت مختلفة تمامًا لدى الكاتبة البريطانية جانيس إليوت Janice Eliot التي نشرت روايتها «الحياة على النيل» عام ١٩٨٩م.

إذَن فالكاتبة الجديدة تقلب من منظور زميلتها كريستي؛ فبدلًا من الموت، فإن الحياة تلمع، وبدلًا من القتل، هناك حالة من الحنين والعودة إلى مصر في زمن الاحتلال البريطاني.

الكاتبة «جانيس إليوت» لم تصدر لها روايات كثيرة؛ لكن من بين إبداعها هناك «ممرات المجد» عام ١٩٨٦م، أما الحياة على النيل فمن الأرجح أنها رواية حقيقية دارت

أحداثها يومًا ما في مصر؛ فهناك امرأة بريطانية تأتي إلى مصر من أجل معرفة المزيد عن جدتها التي استقرت في مصر في عشرينيات القرن العشرين وتزوجت من مصري وعاشت سعيدة في أعالي مصر ... في أسوان.

الحفيدة تصل إلى القاهرة وسط أحداث سياسية واجتماعية غريبة، إنها تصل في عام ١٩٨٦م إبان أحداث الأمن المركزي الدرامية، وترى الناس في الشوارع في حالة من عدم الانتظام، ولا تعرف ماذا يحدث، وتقرر البقاء في الفندق دون الخروج للمدينة.

وبعد أن تهدأ المدينة، تقرر السفر إلى أسوان للتعرف إلى ما حدث لجدتها قبل نصف قرن على الأقل ... وتقابل أشخاصًا كانت لهم صِلة مباشرة بالجدة.

الجدة كانت شابة جميلة، جاءت إلى مصر حبًّا في تاريخها وقررت البقاء فيها، وذات ليلة، إبان ثورة ١٩١٩م، يلجأ إلى بيتها أحد المناضلين ضد الاستعمار البريطاني، إنها بريطانية، تجد نفسها في موقف حرج، ثم تقوم بإيواء المناضل، وتنكر وجوده عندما يأتي الجنود الإنجليز للسؤال عن شخص اختفى في الضاحية؛ فإنها تساعده وتستمر في إيوائه.

وأثناء إقامة المناضل المصري في بيت المرأة البريطانية تتعرف الشابة آنذاك على أهداف الثورة، وتعرف مَن يكون سعد زغلول، وتتحول إلى مناصرة للثورة، وتقترن بالمناضل الذي يقبض عليه الإنجليز فيما بعد.

هذه المرأة، تفهم معنى أن يطالب المصريون عام ١٩١٩م بأحقيتهم في الاستقلال وتتبنى قضية المصريين، بعد القبض على حبيبها، المناضل المصري، وتنتظر عودته. وتقرر البقاء هناك إلى الأبد، تنتظر الحبيب، حتى وافتها المنية.

«جانيس إليوت» كتبت عن العرب، وصوَّرتهم مناضلين سياسيين، ودافعت عن حقهم في الوجود والحرية والاستقلال، وذلك عكس ما فعلت تمامًا زميلتها «أجاثا كريستي».

فيولين فانويك: قصص الحب عند الفراعنة

Violaine Vanoyeke

الكتاب الذين تمت فيه الرحلة إلى المدينة يحمل عنوان قصص الحب عند الفراعنة، وهو أقرب إلى رحلة أدبية راقية عبر مجموعة من قصص الحب الشهيرة بين «نفرتيتي وأخناتون» و«رمسيس الثاني ونفرتاري»، ثم «الملكة تي ورمسيس الثالث».

* * *

لكننا سنتوقف عند مدينة الإسكندرية من خلال ما كتبته المؤلفة «فيولين فانويك» عند علاقة الحب التي ربطت بين «كليوباترة» وكل من «يوليوس قيصر»، ثم «مارك أنطونيو».

ارتبطت الملكة «كليوباترة السابعة» باسم مدينة الإسكندرية عبر التاريخ؛ فكأنك لا يمكن أن تنطق اسم أحدهما إلا وتبادر إلى الذهن اسم الطرف الآخر (كليوباترة-الإسكندرية)؛ لذا فإن الكاتبة لم تفصل أبدًا بين الملكة المصرية والمدينة طوال صفحات الكتابة، وإذ كنا كقراء للأدب والتاريخ نعرف بعضًا من تفاصيل العلاقة السياسية والتاريخية بين «كليوباترة» وكل من «أنطونيو» و«قيصر»؛ فإن ما يهمنا هو وصف مدينة الإسكندرية على لسان الكاتبة الفرنسية «فيولين فانويك» باعتبار أن الثغر كان شاهدًا على هذه القصص.

تقول الروائية عن المدينة من خلال الأحداث:

«غادر «قيصر» مدينة روما ومعه جنوده البالغ عددهم ثلاثة آلاف جنديًّا، وبوصوله إلى الإسكندرية استقر بقصرها الملكي الفخم، وعند مقابلة «بوثاينوس» قال له إنه يود

أن تحضر إليه «كليوباترة» وأخوها «بطليموس». وأن يتم حل جيشها وتسريحه، وعمل «قيصر» على إحضار كتيبتين من سوريا، من أجل دعم الحراسة والمراقبة من حوله.»

وقبل أن نتوغَّل في أروقة مدينة الإسكندرية، كما وصفتها الكاتبة «فيولين فانويك»؛ فإننا يجب أن نتوقف عند الكاتبة فهي دارسة للحضارات القديمة، خاصة الحضارة الرومانية، ولها العديد من الدراسات الأدبية والروايات حول الفراعنة من هذه الكتب «زهرة اللوتس» التي تدور أحداثها في الأقصر.

وعن الإسكندرية، تقول الكاتبة في الجزء الخاص بغراميات كل من «كليوباترة، ويوليوس قيصر» أن الحاكم الروماني «قد شغف إعجابًا بجمال الإسكندرية، وبمنارتها الرائعة وبمتحفها الذي احتضن بين جنباته أكبر علماء العالم أجمع، وأيضًا بمكتبتها النفيسة، ومع ذلك، فقد كان يشعر بضجر وتأفف الشعب المصري منه، فلم يكن المصريون ينظرون بعين الرضا للقادة الرومانيين في شوارع مدينتهم الإسكندرية، بل ولا يطيقون قائدهم هذا الذي ناهز الخمسين من عمره، ويرتدي عباءة مُزيَّنة بخطوط مخملية، وينظر إليهم من عليائه، وهو يدير خاتمه الضخم حول إصبعه والذي يستعين به أيضًا كختم يختم به مستنداته، بل إن هذا القائد كان ينظر نظرات كلها حسد وحقد إلى الكميات الهائلة من القمح التي تُحمل فوق السفن من أجل نقلها إلى أماكن أخرى، في الوقت الذي تعاني إيطاليا من آلام الجوع، وتمزقها الحروب الأهلية.»

مدينة الإسكندرية، كما جاء وصفها على لسان الكاتبة فانويك، هي مدينة متطورة واسعة بها رموز الحضارة، مثل مكتبة الإسكندرية الكبرى، ومنارة ضخمة هي من عجائب الدنيا، وبها متحف يحتضن كبار العلماء من كل أنحاء العالم القديم.

وهناك تناقض واضح بين المدينة وبين روما، ففي الوقت الذي تُعتبر فيه الإسكندرية خضراء مثمرة مليئة بالخيرات؛ فإن روما تعاني من الجوع، وتعاني من التمزقات السياسية، مما دفع بـ «يوليوس قيصر» إلى الحضور للمدينة والبقاء بها؛ فروما مدينة متخلفة قياسًا إلى الإسكندرية، ورغم ذلك فإن قيصر لم يكن شخصًا سويًّا؛ فمشاعر الكراهية تزداد، وإحساسه أنه مستعمر أجنبي يتنامى: «لم يستبعد أن يقوم المصريون بحصاره وهو بداخل القصر.»

وإذا كنا نتحدث عن الجانب المشرق للإسكندرية، كما كان في تلك الآونة، وكما وصفت الكاتبة في روايتها «غرام الفراعنة»؛ فإن الحال الذي وصلت إليه روما يعكس سمو مكانة المدينة: «خلال تلك الآونة، كانت الحروب الأهلية تجتاح روما، وهكذا تباطأ «قيصر» في الرجوع إليها، واستمر بجوار الملكة المصرية الفاتنة طوال ثلاثة أشهر أخرى في الإسكندرية.

وأعاد إليها قبرص، وزوَّجها «بطليموس الثالث عشر»، ونعِم بما كان يربط بينهما من حب وهيام. وقد اقترحت عليه «كليوباترة» أن يرافقها في رحلة لاستكشاف معالم مصر. واستقلَّا سفينة ملَكية صعدت بهما إلى أعالي النيل حتى أثيوبيا، وقامت بمصاحبتهما وحراستهما ما لا يقل عن أربعمائة سفينة بحرية.»

وتجيء عظمة المدينة، من خلال هذه الرواية، أن «قيصر» بعد أن عاد إلى روما، سعى إلى استقدام «كليوباترة» إلى عاصمته، وعندما جاءت الملكة لزيارة المدينة، حرص «قيصر» أن تكون روما أشبه بالإسكندرية: «لم تشهد روما من قبل مثل هذه الاحتفالات الضخمة الباهرة؛ حيث تراءت التماثيل العملاقة الضخمة التي تمثِّل نهر النيل، ولقد تمت إعادة إصلاح مدينة الإسكندرية التي كانت قد أتت عليها نيران الحريق، وبدا قيصر مرتديًا عباءته الأرجوانية، وهو واقف بعربته الحربية التي تجرها جيادٌ شهباء بعد أن انتهى من استعراض الأمراء والقادة الأسرى.»

هذا عن صورة الإسكندرية، كما جاءت إبان فترة الحب والزواج التي ربطت بين «كليوباترة» و«قيصر»، لكن هناك قصة حب أخرى بدأت ونمت في نفس المدينة، وعلى شواطئها بين الملكة التي قُتل زوجها وبين القائد الروماني «مارك أنطونيو» الذي جاء لتأديبها، فوقع في هواها.

«خرجت «كليوباترة» من الإسكندرية في موكب يفوق الوصف والخيال، حتى وصلت بسفينتها إلى مصبِّ نهر سيدنوس، وتابعت رحلتها في سلام حتى وصلت إلى عاصمة صقلية.»

المدينة أون ذات سيادة وكبرياء، كما يُستشَف من حديث الروائية «فانويك»، والملكة المصرية تكتسب قوتها وشموخها من مكانة المدينة التي تحكمها؛ فهي تذهب إلى صقلية لتدفع «أنطونيو» للحضور إلى مصر. وعندما يأتي القائد إلى الثغر؛ فإن الإسكندرية تبدو أشبه بساحرة يغيب العاشقان معًا في حياة مفعَمة بالمتع الجارفة الجامحة. تغنَّى بها الفنانون والشعراء بعد ذلك لسنوات عديدة. لدرجة أنه بعد فترة من الانطلاق والمتع، تردد «كليوباترة» لحبيبها: لا تجعل الإسكندرية تنسيك واجبك وعملك. إن غيابك عن روما قد استمر لفترة طويلة.

وهناك وصف غريب لسحر المدينة وبحرها؛ حيث صار «أنطونيو» مغرَمًا بصيد الأسماك على شواطئ الإسكندرية، حتى وإن حاول البحر أن يداعبه دومًا؛ فضنَّ عليه بأسماكه، وفي مكان آخر من الرواية، تتحدث الكاتبة عن طبيعة المدينة قائلة: «في ساعة الغسق توجه «أنطونيو» و«كليوباترة» إلى مضمار السباحة؛ حيث كانت قد أُعدت منصة

كبيرة ثُبِّتت فوقها ستة عروش من الذهب الخالص، وجلس كل من «أنطونيو» و«كليوباترة» فوق العرشين الأكبر حجمًا، وكانت «كليوباترة» ترتدي عندئذٍ رداءً شبيهًا بما ترتديه الربة «إيزيس»، وفوق العروش الأقل حجمًا، جلس «قيصرون» (ابن كليوباترة)، و«بطليموس» الذي ارتدى ثيابًا على نمط الملوك المقدونيين. وحلَّى رأسه بالتاج المعروف باسم الكوس».

وأجمل ما في هذه الرواية، أن الإسكندرية كانت دومًا ساحة للحب والغرام، أمَّا المعارك التي خاضها كل من «قيصر»، ثم «أنطونيو»، فكانت تتم بعيدًا عن المدينة، مثل «أكتيوم» التي انتصر فيها القائد «أوكتافيوس» على خصمه «أنطونيو»، ثم جاء بعد ذلك إلى الإسكندرية كي يستولي على الملكة المنهزمة وعرشها.

وتُردد الملكة عقب معرفتها بأمر الهزيمة: ربما تستدعي الضرورة لرحيلي إلى بلد آخر، ولكن في الوقت الحاضر، على أبناء الإسكندرية أن يتيقنوا تمامًا، أنني سوف أحارب حتى آخر رمق في حياتي لكي تبقى مصر حرة مستقلة.

جنكيز إيتاماتوف: جميلة

الروائي الروسي «جنكيز إيتاماتوف» هو واحد من أهم الكتَّاب المعاصرين في النصف الثاني من القرن العشرين. وقد تُرجِمَت رواياته العديدة إلى اللغة العربية. ووجد القراء العرب في هذه الأعمال أن روح أبطالها أقرب إلى طبائعهم، وعاداتهم. وليس فقط فيما يتعلق بأسماء أبطال هذه الروايات.

* * *

والكاتب إيتاماتوف مولود في أوزبكستان في عام ١٩٢٨م، وقد نشر روايته «جميلة» عام ١٩٥٨م، جاءت من بعدها روايات أخرى منها ورحل عام ٢٠١٢م «وداعًا يا خولساراي» عام ١٩٦٥م، و«السيد الأول» عام ١٩٦٣م، و«السفينة البيضاء» ١٩٧٠م، و«أحلام الذئبة» عام ١٩٧٥م.

أما روايته «جميلة»؛ فتدور أحداثها في قرية طلاس الواقعة في واحة روسية عند حدود نهر الكركرو، في هذا العالم يعشق السكان ركوب الخيل والتسابق فيما بينهم، وهي عادة اجتماعية اكتسبها الأهالي من المسلمين الأوائل الذين جاءوا للتجارة في المنطقة؛ فاستطاعوا أن ينشروا الإسلام بدون دعوة عمدية؛ حيث إن السكان كانوا ينبهرون بالأخلاق الحميدة لهؤلاء المسلمين والصدق والأمانة، كما سيتضح من أسماء أبطال الرواية، وشيئًا فشيئًا انتشر الإسلام في المنطقة، وترك المسلمون طبائعهم فيها.

والجدير بالذكر أن الكاتب «إيتاماتوف» لم يقصد المعاني التي نوردها بشكل مباشر؛ فرواياته مكتوبة إبان النشاط السياسي الشيوعي في المنطقة؛ حيث إن ممارسة شعائر الدين كانت ممنوعة. لكن هذا لم يدفع الأهالي إلى التخلي عن عاداتهم كمسلمين.

وبطل الرواية صبي صغير لم يتجاوز الخامسة عشر، وهو يشعر أنه رب الأسرة المسئول عن زوجة أخيه صادق بعد أن سافر الأخ إلى الحرب. وزوجة الأخ جميلة تحمل الكثير من الصفات التي يعنيه اسمها باللغة العربية؛ فهي أجمل بنات القرية على الإطلاق، جسدًا وروحًا، وتترك على أثرها على كل من يقابلها. ويجد الصبي نفسه قريبًا للغاية من زوجة أخيه جميلة، تشجعه على أن يكون فارسًا يركب الخيل ويكسب في السباق، ويشجعها هو على أن تقتني الحيوانات الأليفة وتربيتها في الحظيرة.

ويأتي الخطر ذات يوم إلى المكان عندما يصل القطار حاملًا الجندي دينار، المصاب في الحرب، وتتولى جميلة والصبي رعايته، وبعد بعض الوقت يُحس الصبي أن الفتاة قد وقعت في حب الجندي المصاب دينار؛ فيردد في داخله أنه استطاع أن يحميها من أخطار عديدة لكنه لا يستطيع أن يمنعها من خطر الحب، وكل ما عليه أن يمنع حدوث ما يحرِّمه الدين بين المحبوبين.

وينمو الحب أقوى بين جميلة ودينار، ويصلِّي الصغير إلى السماء ألا تحدث أي خطيئة، وعندما يواجه جميلة؛ فإنها لا تنكر الحب، وتتهمه أنه أيضًا يحبها، ولا يستطيع أن يمنع عنها حبه حتى وإن كان أخويًّا.

وتهرب الفتاة مع الحبيب، إنها تعرف أن الحرب سوف تطول، وأن صادق زوجها لن يعود. وهي الجميلة التي تتعرض للغواية. ويُصدَم الصبي بهذا الهروب، ويقرر أن ينتقم لشرف أخيه، ويركب جواده مثل الفرسان المسلمين الذين جاءوا إلى طلاس، ويحمل سلاحًا، ويجوب الصحراء فوق الجواد. لكنه لا يعثر على العاشقين، لقد ذابا مع الريح.

وعندما يعود إلى القرية يكتشف أن شيئًا ما قد تغيَّر في حياته؛ فالآن قد صار رجلًا، يمكنه أن يدافع عن شرفه، وشرف أخيه الغائب في الحرب.

باخيش بابايف: توت عنخ آمون

اعتدنا أن يأتي أدباء من الغرب إلى المدن العربية، وزيارتها بشكل عابر أو دائم، ثم الكتابة عنها، خاصة القيام بتأليف روايات أدبية.

والملاحَظ أن الروايات التي وصلتنا أغلبها قادم من أوروبا، أو الولايات المتحدة، ربما من أجل لغات تلك البلاد، لكن قليلة، بل نادرة، هي الأعمال التي وصلتنا عن اللغة الروسية على سبيل المثال.

* * *

والروائي «باخيش بابايف»، هو أحد أدباء روسيا المعاصرين، وقد قامت الشاعرة سهير المصادفة بترجمة روايته «توت عنخ آمون» عن اللغة الروسية، وهي حسبما كتبت المترجمة: «كانت أول ما كتب «باخيش بابايف» بعد اعتكافه على التاريخ المصري لأكثر من عشرين عامًا، وقد حقق صدورها حجم مبيعات لا تضاهيه مبيعات أشهر الكتب، لأشهر الكتَّاب في الاتحاد السوفييتي سابقًا. ونفدت الطبعة الأولى بعد صدورها بأيام قليلة، وبِذا حقق الشاب من كتابه الأول هذا نجاحًا ساحقًا، وشهرة عظيمة، كأن الملك الشاب «توت عنخ آمون» يرد له حبه أضعافًا مضاعفةً.»

إذَن، فنحن أمام كاتب شاب لمع في الثمانينيات في الاتحاد السوفييتي، ولم تصلنا أي معلومات عن رواياته التالية.

ويقول المؤلف «بابايف» أن كل شخوص هذه الرواية حقيقية، وقد يكون للأحداث التي فكَّر فيها المؤلف مكان في الماضي السحيق؛ فالكثير من الحقائق قد ضاع إلى الأبد مع التشويه المتعمَّد، وتخريب آثار هذه الفترة من قِبل الملك «حور محب» الذي تولى الحكم بعد ذلك، والذي لم يترك لنا ما يمكن أن نعرفه عن هذه الفترة إلا النذر القليل.

وتدور أحداث الرواية في عصر الأسرة الثامنة عشر، وتحديدًا، حول الملك الشاب «توت عنخ آمون» الذي تم تتويجه وهو في التاسعة من العمر تحت اسم تب–خبرو–رع، وهو الملك الذي كان مجهولًا تمامًا إلى أن اكتشف الأثري البريطاني «هيوارد كارتر» مقبرته عام ١٩٢٣م، وفاق ما وجد بها الخيال، فلقد كان حجم الذهب وحده مساويًا للذهب الموجود في أسواق موسكو في السبعينيات. لكن الشيء الوحيد الذي أثار دهشة العالم، هو باقة الزهور الحقيقية المتواضعة التي كانت تنام بسلام على صدر المومياء، كأجمل قلادة في العالم، دون أن تفقد طبيعتها عبر آلاف السنين، لتصبح رسالة رائعة، تعكس المشاعر الإنسانية، والحب والرحمة، وهي الأشياء التي تبقى مع الإنسان عبر الأزمنة.

وتدور أحداث الرواية في مدينة الأقصر، طيبة في ذلك العصر. ولا شك أن الكاتب لم يقم بزيارة المدينة في ذلك العصر، وإن كان قد زار الأقصر في القرن العشرين؛ لذا فإن المدينة بدت في الرواية من خلال ديكوراتها الداخلية، وقصورها، وبيوت الحُكَّام، لكن هذا لم يمنع المؤلف الروسي «باخيش بابايف» أن يصف لنا أكثر من مرة، وصفًا دقيقًا كيف كانت المدينة الفرعونية طيبة، عاصمة الفراعنة في الأسرة الثامنة عشرة. فبالرغم من أن الرواية مزدحمة بالشخصيات الذين يسكنون هذه الأماكن، إلا أن الكاتب كان يخرج بأبطاله ليصف المدينة من الخارج، والشخصيات الرئيسية في الرواية هي الملك «توت عنخ آمون»، الذي لا يزال يتذكر الملك الراحل «إخناتون»، ودائمًا ما يذكره بالسوء، ويندهش كيف هو الرجل الأكرش العجوز يقترن بفتاة جميلة حسناء مثل «نفرتيتي»، التي تعد شخصية حاضرة دومًا في الرواية. ويتساءل الكاتب على لسان «آي» أحد القادة، قائلًا:

«يا للمهزلة والتناقض! جميلة الجميلات تحب مسخًا مشوَّهًا، له جسد رخو كأنني في الأربعين، بخصر غليظ وبطن مرتفع، وهو مشغول عنها كل الشغل بدينه الجديد، بالسياسة وبإسقاط وخلع ديانة «آمون»، وإعلاء شأن إله جديد … يا له من منطق.»

و«آي» قائد الجيش شخص كريه، يخاف من الحاكم، ومن ظِله، أما الملكة «نفرتيتي»، التي تظل على قيد الحياة، فهي امرأة رقيقة، تستغرق تمامًا في أفكارها حتى أنها لا تتابع شيئًا ما كان يدور حولها. تبدو عيناها، كما يصفها الكاتب، متسعتَي الحدقتَين، جميلتَين، عميقتَين، كنبعَي ماء غائرَين في جبل من جبال فينيقيا، لم يكن بهما أي تعبير محدد، أما بعد موت «إخناتون» فقد أخذت «نفرتيتي» على نفسها عهدًا بألا تتزوج. ولكن الكهنة لم يوافقوا بأي شكل من الأشكال على قرارها.

والمؤلف لا يصف كيف تكون البيوت، والقصور الملكية من الداخل، بالتفاصيل، وكأنها نفس البيوت التي يعيش فيها الحُكَّام في كل عصر، لكن «بابايف» يصف بتفاصيل دقيقة

للغاية، كيف يكون شكل مدينة طيبة، وسوف نورِد هذا الوصف هنا بنفس العبارات التي جاءت بها، في الفصل الخامس، حيث يتحدث عن العبدة «إسترم» التي تنتظر أن تتزوج من حبيبها الشاب بعد أن يتم عتقها من العبودية. ويجيء الوصف كالتالي: «ببطء، ودون هدف، طافت العبدة «إسترم» متحاملة على نفسها جميع أرجاء المدينة، تلكَّأت طويلًا أمام قصور الموسرين بطيبة المشيَّدة وسط حدائق بها بِرك مليئة بأزهار اللوتس والأسماك. محلِّقة الطيور على جوانبها ويحيط بهذه الحدائق أشجار الجميز الوارفة الظِلال. وأخذت تتأمل بعض المنازل المحلَّاة بالخشب والغاب، وأعمدة النخيل ذات الألوان الزاهية، وكأنها صُنعت لتكون جزءًا من الحديقة. وأصحابها يأتون على محفَّاتهم التي يحملها الأرفاء.»

«وبدت من بعيد رءوس المسلات كما لو كانت تحرس طيبة بظلالها، وها هي تمر أمام معبد آمون أهم معابد مصر كلها. وكان الطريق المؤدي إليه من بحيرة آلهة القمر يخترق المدينة، وتقوم على جانبيه رءوس الكِباش، وتماثيل أبي الهول، وكانت تحيط بالمعبد أسوار من الآجر السميك خلفها الكثير من البنايات والأبراج الزاخرة بنسائم أزهار اللوتس الفوَّاحة المختلطة بحفيف أوراق البردي التي تنتشر في الجو، وحول أعمدة المعبد المُزيَّن بالصور الملونة كأنه مدينة أخرى داخل طيبة، يقف على أبوابها الضخمة النحاسية جميع من ماتوا من الملوك، مارة أمام المرفأ المزدحم بالقوارب المصنوعة من الخشب والغاب.»

«فتحت «إسترم» رئتيها بقوة مستقبلة الرياح الآتية من المرفأ، حاملة عبق أشجار السن، وأعواد المِسك التي لم يستطع محوها من أنفها إلا رائحة السمك التي تنبعث من الأكواخ المبنية باللبِن، أو المصنوعة من أعواد الغاب.»

«أخذت النسوة يُهرعن من النار التي تشوي الأسماك إلى أزيارهن الموضوعة فوق حوامل خشبية كأنهن يؤدين حركات رقصة مجنونة، وخلفهن أطفالهن مهَلهَلو الثياب، حفاة، مُقوَّسو السيقان، على وجوههم يحتشد طين النيل.»

«ألقت «إسترم» نظرها إلى النهر متأملة القرى التي تتناثر حوله، هنا وهناك، ودارت عيناها قليلًا مع دوران الثيران التي تجرُّ المحاريث والتي ستظل للأبد تدور وتدور دورانًا متصلًا على موارد الماء لتدفع به إلى القنوات والمسارب.»

ولا شك أن وصف الكاتب للمدينة ينعكس من قراءاته، وأيضًا من زيارته، وقد عكس هذه الرؤية من خلال عينَي امرأة، باعتبار أن أعين النساء أكثر تدقيقًا ورصدًا؛ حيث يُكمل قائلًا: «عادت «إسترم» بعد أن تلكَّأت طويلًا أمام ورشة للنجارين الذين يصنعون من الأخشاب تماثيل الأرفاء والخدم لتكون في خدمة أصحابها بالدار الثانية، وليستغنوا بها

عن خدمة أنفسهم بأنفسهم، فلم تستطع «إسترم» منع نفسها من الابتسام، قادتها قدماها في النهاية إلى وسط المدينة؛ حيث الميدان الرئيسي الذي كان ممتلئًا بالناس على آخره، وعلى الجسر القديم وقف المنادي الملكي وبجانبه جلس الكاتب.»

دافيد بالدرستون: الطريق إلى دمشق

لم يأتِ أدباء العالم لزيارة المدن العربية، باعتبارها أماكن سياحية، يشاهدون بها آثار تدل على تواريخ مجيدة، وأحداث سياسية صارت تاريخًا، وفنون راقية ظلت شاهدة على أمجاد شامخة.

* * *

بل إن الكثير من هؤلاء الأدباء، جاءوا خاصة في العقود الأخيرة، من أجل خوض غِمار الصراعات السياسية التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط، والتي لم تكُفَّ عن التصاعد من عقد وآخر، رغم توقف أزيز الطائرات، وطلقات المدافع الثقيلة إلى حدٍّ ما في المنطقة منذ سنوات.

ودائمًا ما يكون هناك نوع من الحذر، عند قراءة رواية تدور أحداثها في مدن الشرق الأوسط المعاصر، خاصةً إذا كان الروائي أمريكيًّا أو بريطانيًّا، من طراز «جون لوكاريه».

لكن الرواية التي نقدمها الآن، تدور أحداثها بين أربعة مدن عربية، تمثل مربعًا ساخنًا، المدن هي دمشق، وعمان، وبيروت، والقدس.

والكاتب هو الصحفي الأسترالي «دافيد بالدرستون» David Balderestone الذي نشر روايته الأولى «طريق من دمشق» عام ١٩٩٢م، وأهميته أنه قادم من وطن بعيد كثيرًا، عن دوائر الصراع في المنطقة، لكنه موجود في الشرق الأوسط منذ عام ١٩٧٧م، بحكم عمله كمراسل لجريدة «آج» AGE الأسترالية، ومكَّنه عمله من مقابلة «آيات الله الخميني»، وزار العديد من المدن العربية، كما أنه عمل بعد رحيله عن المنطقة، محررًا في جريدة التايمز اللندنية.

أربعة مدن عربية، إذَن، هي المحور الرئيسي للرواية، لكن الغريب أن المؤلف يراها بعيون سياسية مليئة بالصراع والخصومة والأحداث المثيرة، وهو لا يذهب إلى قاع المدن شخص غريب عن المدن، بل هو يحرك أشخاصه من خلال ما تشهده المنطقة من قلاقل، وبذلك فإن المؤلف لم يكن سائحًا، بقدر ما حاول أن يعكس وجهة نظره، عما يدور في هذه المدن.

لكن السؤال هو: أي وجهة نظر يتبناها الكاتب في الصراع الدائر داخل هذه المدن، إنه يردد ما زلت أذكر الإرهاب الذي مارسه الصهاينة خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية حين تنكَّروا لكل ما فعلته بريطانيا من أجلهم فشنقوا وقتلوا جنودها.

المدينة الأولى التي تدور فيها الأحداث، هي «عمَّان» عاصمة الأردن، ونتعرف على رجل استخبارات قديم، هو البريطاني «ديكي جونز»؛ فذات مساء يتحدث عن الدبلوماسي الشاب «مارك ديمور» بإعجاب؛ فهو ليس فقط دبلوماسي، ولكنه أيضًا خبير آثار، ومصور صحفي جاء يمثِّل بلاده أستراليا في المنطقة.

«مارك» يجد نفسه في مدينة يملأها الصراع؛ حيث لم تكن الأردن قد وقَّعت بعدُ أي اتفاقيات سلام مع إسرائيل، يردد: الوسط الدبلوماسي في عمَّان يختلف عنه في دمشق؛ حيث يتسم بالمحافظة ويتعذر اختراقه. كما يردد أنه لا حرب بدون مصر، ولا سلام بدون سوريا، دمشق لا تزال تمسك بيدها مفاتيح السلام الحقيقي في المنطقة.

ويعبِّر الكاتب عن وجهة نظره لما يدور في المنطقة؛ حيث يردد أن كل شيء في الشرق الأوسط مؤقت، وبما في ذلك إسرائيل والأردن، قد تكون إسرائيل مجرد مرحلة تاريخية عابرة ليس إلا ... لقد انتظر اليهود ألفَي عام في الشتات، والآن، هل جاء دور الفلسطينيين؟

و«مارك» يعقد صداقات مع أبناء المدينة، وعلى رأسهم رجل الأعمال الفلسطيني «بطرس حبيب»، المستشار السياسي للمقاومة الفلسطينية، والذي يعرف من خلاله أن ابن أخته «مروان» قد انضم إلى خلية فلسطينية للمقاومة تتخذ من العاصمة السورية دمشق مقرًّا لها.

العلاقة بين الدبلوماسي الصحفي وبين «بطرس حبيب» قديمة، تعود إلى قبل الحرب العالمية الثانية؛ حيث جاء عم «مارك» والتقى بالعائلة العربية التي كانت تُقيم آنذاك في مدينة القدس؛ حيث كان يعيش الجميع هناك، بصرف النظر عن عقائدهم.

يعرف «بطرس» أن صديقه المصور الصحفي «مارك» سوف يسافر إلى دمشق في رحلة عمل؛ فيطلب منه مقابلة «مروان» ابن شقيقته؛ لكن «مارك» يتوصَّل إلى مكان

الفدائي، ليس في دمشق، بل في بيروت، وقبل الوصول إلى معسكر اللاجئين الذي يقيم فيه «مروان»، تقوم قوات إسرائيل بقذف المكان بالقنابل، وتقتل الطبيبة الفلسطينية «سميرة» خطيبة «مروان».

ويستكمل «مارك» رحلته إلى دمشق لتكون المدينة العربية الثالثة التي تدور أحداث الرواية في إطارها؛ فمدينة دمشق هنا ليست أكثر من مطعم صغير، يضم كلًّا من «مروان» الحزين الذي يتحدث إلى «مارك» عن أحزانه لما فقده، ويُبلِّغ «مارك» أنه يتوق لزيارة بيت الأسرة القديم في مدينة القدس.

برناردشو: المليونيرة

الكاتب البريطاني الساخر «جورج برناردشو»، هو واحد من أبرز كتَّاب العالم الذين تعاطفوا مع الإسلام؛ وذلك في العديد من مسرحياته ورواياته، ومنها على سبيل المثال: «تلميذ الشيطان» و«جينيف» و«أندرو كليز والأسد» و«المليونيرة»، بالإضافة إلى ما كتبه من مقالات ومقدمات طويلة لمسرحياته.

* * *

وفي هذا الصدد، فإن الكاتب المصري الراحل الذي أقام في جينيف «محمود علي مراد» قد أعد رسالة دكتوراه تحت اسم «برناردشو والإسلام»، ذكر فيها أن الكاتب الذي حصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٢٥م قد اتخذ دائمًا مواقف مناصرة للمسلمين، خاصة في حركاتهم التحررية ضد الاستعمار البريطاني.

كما أن برناردشو قد وقف بشدة ضد سياسة بلاده في حادثة دنشواي، عام ١٩٠٦م، أما مسرحية «المليونيرة» فقد كتبها عام ١٩٣٥م، أثناء المباحثات البريطانية المصرية التي أسفرت عن المعاهدة المشهورة في العام التالي.

وكان الهدف من كتابتها هو تصوير الصراع الأزلي بين ماديات الحضارة الغربية، وبين روحانيات الشرق.

بطل المسرحية هو طبيب مصري مقيم في بريطانيا، وهو مؤمن بالعديد من القِيم أهمها الإيمان بالله عز وجل، والرسول عليه الصلاة والسلام، وهو في ذلك يتبع تعاليم القرآن الكريم، والسُنة المشرَّفة.

وفي نفس الوقت؛ فإنه عالم متفتح على ما أنجزته الحضارة الغربية من تقدُّم علمي وتطور في مختلف مجالات التقنيات؛ لكنه في نفس الوقت لا يقرَب الخمر، ولا المحرَّمات المتمثلة في الاقتراب من النساء دون رابط شرعي.

لذا فإن الطبيب المصري يقاوم بشدة كافة الإغراءات التي تقدِّمها له امرأة جميلة تملك الحُسن والملايين، وتحاول أن تضمَّه إلى عالمها.

وفي إطار من الحبكة المتقَنة؛ فإن المليونيرة تدبر الكثير من المقالب؛ لكن الطبيب منتبه تمامًا إلى ما تفعله ولأنه طبيب فهي تأتي له في العيادة تعرض عليه ما تتمتع به من إغراء لتضعفه؛ لكن الطبيب لا يمتثل ويحاول هو بدوره أن يعرض عليها ما أتى به من الشرق، من روح طاهرة وتعاليم مقدسة، فيكشف لها أن الجسد الإنساني ليس مشاعًا للآخرين، وأن حماية جسد المرأة صيانة لها.

وأهم ما في المسرحية أن برناردشو البارع في السخرية وكتابة الحوار يبتعد تمامًا عن المباشرة؛ فالطبيب لا يستخدم النصح المباشر، بل هو يبدو في تصرفاته، كما يقول الكاتب: «إنسان ناصع البياض.» وتحس المرأة أن السعادة ليست في الملايين التي استخدمتها كسلاح إغراء بقدر ما هي في التزام الإنسان بمجموعة من القيم؛ لذا فهي تضع كل هذا جانبًا، وتعلن أن لديها ثروة جديدة من القيم الروحية، وهنا يتم الزواج بين الحبيبين، علمًا بأن مسألة زواج المسلم الشرقي من امرأة غربية أمر نادر الحدوث في الكثير من كتابات الغرب عن الشرق.

والتر سكوت: التعويذة

الكاتب البريطاني الشهير سير «والتر سكوت» هو واحد من أهم الكتَّاب البريطانيين في كل العصور، وهو من أبرز كتَّاب رواية الفروسية والنبل. وقد عاش في الفترة بين عامي ١٩٧٧م و١٨٣٢م، وهو صاحب العديد من المؤلفات ومنها «إيفانهو»، و«سيدة البحيرة»، و«القزم الأسود»، و«روب روي» Rob roy وغيرها من الروايات.

* * *

ورواية «الطلسم» التي كتبها سكوت عام ١٨٢٥م، هي الرواية الوحيدة التي كتبها المؤلف حول الحروب الصليبية، ولأن الكاتب اعتاد أن يكون أبطاله دائمًا من النبلاء المتخاصمين فيما بينهم، مثلما حدث بالنسبة لفرسان المائدة المستديرة؛ فإنه حوَّل الحرب بين الصليبيين والمسلمين إلى مواجهة بين نبلاء، خاصة بين الملك «ريتشارد قلب الأسد» و«صلاح الدين الأيوبي»؛ حيث فقد كل من الاثنين الشعور بالعداء الذي يود به كل منهما تدمير الآخر، ولكنه يسعى للانتصار على منافسه، خاصة «صلاح الدين الأيوبي» الذي تسلل ليلًا وسط الجيوش الصليبية، وهو يحمل معه الدواء اللازم لعلاج خصمه.

ويقول النقاد إن «والتر سكوت» هو أحد أدباء الغرب الذين نظروا إلى «صلاح الدين» كبطل عربي مسلم يتَّسم بالنبل والشجاعة. يعيش في بلاد قامت بتصدير الحكمة والقوة والرخاء والشجاعة إلى العالم.

لم يتكلم المؤلف عن الحرب الدائرة بين الصليبيين والمسلمين، ولكن عن الصراع الذي تحول إلى صداقة بين قائدين متحاربين.

فبينما الجيوش رابضة تنتظر المواجهة الحاسمة، بعد أن انتصر «صلاح الدين» على الصليبيين في حطين؛ فإذا بالقائد العربي يسمع خبرًا بمرض عضال أصاب القائد

الإنجليزي، ويرسل إلى الخليفة العباسي يخبره بالأمر، ويستأذنه في أن يذهب لمعالجة القائد الخصم.

ويرى «سكوت» أن النبل لم يكن سمة «صلاح الدين» وحده، بل إن الخليفة الإسلامي ينظر إلى الصليبيين كضيوف سوف يرحلون عن الوطن في أقرب وقت ممكن؛ لذا فإنه يوافق على أن يذهب «صلاح الدين» برغم المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها.

وبالفعل، فبينما السيوف تُشحذ، ووسط جيش منهزم، يتسلل «صلاح الدين» مع واحد من أتباعه داخل الصفوف التي أصيب قائدها بمرض، ويقود الاثنين واحد من رجال «ريتشارد قلب الأسد»، ويدخل الخيمة التي بها المرض، لقد نظر إليه كمريض، وليس كقائد منهزم.

لم يكن «صلاح الدين» إذَن قائدًا منتصرًا، بل حكيمًا يعرف كيف يشخِّص الداء، ويعطي له الدواء.

ويرى «والتر سكوت» أن «صلاح الدين» قد فاق بهذا السلوك أعظم الفرسان الإنجليز شهامةً ونبلًا ونكرانًا للذات؛ فقد كان من الممكن أن يتعرض لأذًى جماعي من الجنود الصليبيين، لو تم اكتشاف أمره وهو يخترق الجيش ذهابًا وعودةً.

ويصوِّر الكاتب البطل المسلم كعالِم مثقف، وليس فقط كقائد منتصر شجاع ومحارب، فقد تمكَّن من تشخيص المرض العضال الذي كاد أن يُودي بحياة «ريتشارد قلب الأسد» ومنحه العلاج الشافي.

وقبل أن يغادر «صلاح الدين» معسكر الصليبيين، يقدِّم إلى الفارس الأسكتلندي الشهير سير «كينيث» التعويذة أو الطلسم الشافي الذي يمكن أن يُبرئ المريض، لو عاوده المرض، ومن هنا جاء اسم الرواية «التعويذة».

الجدير بالذكر أن هذه الرواية تحوَّلت إلى فيلم سينمائي مليء بالنبل، عام ١٩٥٣م تحت اسم «صلاح الدين والصليبيين».

ليونيل بلاك: الدور على عرفات

نجح الرئيس الفلسطيني «ياسر عرفات» في أن يُغيِّر صورة المناضل الفلسطيني في عيون الإعلام العالمي، وخاصةً في عيون المبدعين.

* * *

ففي سنوات السبعينيات، كانت أغلب الروايات التي تدور على الصراع العربي الإسرائيلي تركز أن الفدائيين الفلسطينيين هم في المقام الأول إرهابيين، وقد اتضح ذلك في روايات عديدة كتبها «روبرت لودلم»، و«روبرت فورسايث»، و«ليونيل بلاك».

وسوف نحاول التعرف على واحدة من الروايات التي كتبها «بلاك» في عام ١٩٧٩م، تحت اسم «الدور على عرفات».

ويعتمد هذا النوع من الروايات على وضع الحقائق التاريخية، إلى جانب حكاية متخيَّلة مليئة بأسباب الإثارة؛ تبدأ الرواية بشاب يدخل مكتب شركة تجارية إسرائيلية في لندن، وقبل أن تسأله الموظفة عما يريد، يكون قد رمى بحقيبة تحت قدميها، ويسرع بالفرار هاربًا بينما تنفجر في رجل بريطاني يُدعى «أنطوني دانتون».

في صباح اليوم التالي، تعلن إحدى المنظمات الفلسطينية مسئوليتها عن الحادث، ويتم تشييع «أنطوني» في جنازة بسيطة، وعقب الجنازة يعلن شقيق القتيل أنه لا بد من الانتقام، ويطلب من شقيقه التوأم بالإسراع بقتل الرئيس الفلسطيني.

يقول له شقيقه: اسمع يا «جايلز»، لقد كنت في المنطقة منذ فترة قريبة، وأعرف الكثير من الثوار العرب، «عرفات» ليس إرهابيًّا، إنه رجل مثقف وصاحب حق، عنيد. جرت عدة محاولات لاغتياله فشلت جميعها.

يردد الأخ إنه لن يتراجع عن موقفه؛ لكن الآخر يردد: أريدك أن تعرف أن «ياسر عرفات» هو الشخص الوحيد العاقل فيهم، وهو ليس وراء الإرهاب بل يحاول أن يمنعه، وإذا ذهب «عرفات» فستكون فرصة لمجموعة من المتوحشين ليدمروا السلام العالمي.

هذا الإصرار من الأخ، يجعل رجال الاستخبارات البريطانية يفتحون ملفات الأخوين، فتعرف أن «جايلز» عاش بضع سنوات في منطقة الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الثانية، بين القاهرة، والأردن، وسوريا، وفلسطين ونتيجة لإجادته اللغة العربية، فقد كان يتنكر في الزي العربي، ويندس وسط العرب ويزود البريطانيين بالمعلومات.

ومن هذه المعلومات تتأكد للاستخبارات أن الأخوين يمكنهما أن يُحققا انتقامًا فتدور مطاردات من لندن إلى بلفاست وباريس، ثم بيروت، ودمشق، وعمَّان، وسط مقابلات مع عملاء ووسطاء، وأعداء الفلسطينيين والثورة الفلسطينية.

وينجح الأخوَان المتنكرَين في ثياب فدائيَين فلسطينيَين في الوصول إلى القيادة ولكنهما يفشلان في المهمة، بعد أن يعرفا بالفعل أن «عرفات» ليس رجلًا إرهابيًّا بل هو مناضل صاحب قضية سياسية ووطنية.

أنتوني بيرجس (١٩٨٤–١٩٨٥م)

الكاتب البريطاني «أنتوني بيرجس» عاش بين عامي ١٩١٧ و١٩٩٤م، وهو روائي وناقد وكاتب مقال، ويعتبر أشهر كتَّاب عصره الذين كتبوا روايات التنبؤ السياسي، لما يمكن أن يحدث في المستقبل، ومن بين رواياته «البرتقالة الآلية»، و«أخبار نهاية العالم»، ورواية باسم «١٩٨٤– ١٩٨٥» نشرها عام ١٩٧٩م، تمت ترجمتها في التسعينيات في مصر باسم «المسلمون قادمون».

* * *

ومن عنوان الرواية نكتشف أن «بيرجس» قد حاول أن يتنبأ بالصورة التي ستكون عليها بلاده بريطانيا في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين أسوةً بما فعل مواطنه الروائي الشهير «جورج أورويل» في الرواية الشهيرة «١٩٨٤».

تخيَّل «أورويل» أن النظام الشمولي سوف يحكم العالم، وخاصةً بريطانيا، فتُرى كيف كان تخيُّل «أنتوني بيرجيس»؟

كانت للكاتب وجهة نظره في المستقبل، فهو يرى أن مدينة لندن قد ازدحمت بالمسلمين من بلاد النفط بشكل خاص، وأنهم قاموا بشراء الكثير من الشقق، والمؤسسات البريطانية لِعدة أسباب. أولها النفط الذي درَّ على بعض الدول العربية الكثير من الثروات. أما السبب الثاني فهو أن الأثرياء العرب يهربون من الأنظمة السياسية في بلادهم باحثين عن حريات أفضل.

وفي الرواية يصبح المسلمون بأموالهم وأعداهم قوة اقتصادية ضاربة في مدينة لندن، مما يدفع بحدوث المزيد من التغيرات السياسية. فالملك «تشارلز الثالث» يتولى عرش البلاد

من أجل استعادة الديمقراطية؛ لكن البرلمان غاضب على ما حدث في لندن. ويودُّ أعضاء البرلمان وضع حدود لنفوذ العرب الاقتصادي في لندن.

والكاتب يقصد بالمسلمين هنا عرب الخليج، بزيهم الشعبي المألوف، وثرواتهم. إذ ليس كل المسلمين في كل الدنيا من أثرياء.

وتنقسم لندن إلى قسمَين أساسيَّين؛ فهناك العرب يقفون إلى جوار الملك الذي يبارك وجودهم في لندن، ويحضر المناسبات الدينية المختلفة، ويصور «بيرجيس» شهر رمضان المعظَّم وقد تغيَّرت الحياة تمامًا في لندن. فالصلوات تعمُّ المدينة، ومكبرات الصوت ترفع الأذان. والمدينة تكاد تخلو من المحرَّمات التي يحرِّمها الدين، ومنها لحوم الخنازير والكحوليات.

من الواضح أن الكاتب لم يكتب كل رواياته من أجل تنبيه شعبه إلى أن التساهل في بيع لندن إلى الغرباء سيجعلها مدينة مسلمة، بل يرى أن الصراع السياسي بين السلطات والنقابات سوف يعجِّل بنهاية إنجلترا التي يعرفها الجميع.

الجدير بالذكر أن هذه الرواية تنتمي إلى نوع من الأدب يُعرَف بالخيال السياسي، وهو يهتم بتصوير المستقبل من خلال التغيرات السياسية الحادة التي قد تحدث من حولنا.

لوي جارديل: قلعة ساجان

الكاتب الفرنسي «لوي جارديل» مولود في مدينة الجزائر عام ١٩٣٩م، وهو ينتمي إلى ثقافة الأقدام السوداء أي هو من الفرنسيين الذين تربَّوا في الجزائر، وعقب الاستقلال اكتشفوا أن لهم وطن آخر عليهم الرحيل إليه.

* * *

بدأ حياته الأدبية برواية «الصيف الصاخب» عام ١٩٧٣م، ثم «سكين الحرارة» عام ١٩٧٦م، و«قلعة ساجان» عام ١٩٨٠م، و«الدور الجميل» عام ١٩٨٦م.

وقد ذاعت شهرة الكاتب عقب تحويل روايته «قلعة ساجان» عام ١٩٨٤م إلى فيلم، وهي رواية تدور في الصحراء حول المواجهة الحضارية بين الفرنسيين والجزائريين. فـ «شارل ساجان» هو «دون كيشوت» الصحراء، تحولَّت طواحين الهواء بالنسبة له، إلى سرابات الرمل التي لا تقترب أبدًا، يحلم بامتلاك تلك المساحات الواسعة الممتدة أمامه من الرمال التي لا يسكنها أحد فلا يمكن للبصر أن يبلغ مداها.

والرواية بمثابة مواجهة بين حضارتين متناقضتين، فساجان يحلم أن يمتلك الصحراء لكن السلطان «محمود» يقف له بالمِرصاد، إنه رجل فقدَ سلطانه، مثلما حدث لأجداده منذ أن جاء المحتل الفرنسي، وهو لا يسعى للحصول على أرضه بقدر ما يمنع «ساجان» من امتلاك الرمال، ويردد: «هذه الأرض مِلك لله عز وجل، ولن تفيدك في شيء. إنها أكبر منك، ومن حدود مداركك.»

وبالفعل، فإن كلمات السلطان «محمود» الروحانية ترن في أذن «ساجان»، ويقرر أن يرسل إلى أخيه المقيم في باريس، كي يحضر إلى الصحراء، لاقتسام الصحراء فيما بينهما؛

لكن السلطان المؤمن بالله يضحك، ويردد أن الصحراء مِلك لله، وهبها للمؤمنين من أجل التعبد تحتها، وللتأمل في سمائها الصافية، واكتساب المزيد من المشاعر الروحانية.

لكن «شارل ساجان» يحلم أن يبني قلعة في وسط الصحراء، وأن يضع عند أسوار القلعة الحرس من أجل حمايتها، ومن جديد فإن السلطان «محمود» يبتسم وتعبِّر هذه الابتسامة عن دهشة حقيقية من حضارة الامتلاك التي تمثلها فرنسا، ويقول لـ «ساجان»: لا أستطيع أن أمنعك إن أردت أن تأخذها فهي ليست ملكًا لي.

ويبدأ «ساجان» في بناء القلعة التي ينشدها، ويحاول أن يجعلها بالغة القوة، وبعد أن ينتهي من البناء يدعو السلطان «محمود» الذي يقول له: ألا ترى أنها واسعة للغاية.

ويرد «ساجان» قائلًا: سوف أملأ القلعة بالبشر. ويكتشف «ساجان» أن القلعة أشبه ببيت أشباح؛ فلا أحد يود الحضور إلى هنا للعيش فيها، ويتخذ القائد العسكري هذا زوجة فرنسية تأتي للعيش معه، لكنها لا تحتمل هذا الصمت الرهيب، وعندما يأتي السلطان «محمود» يردد:

صدقوني الصحراء تتكلم؛ لكن ليست اللغة التي ترددونها، إنها لغة لا يفهمها سوى من اعتادوا على عبادة الله تحت سمائه.

ويشعر «ساجان» بالهزيمة، ويقرر أن يرحل عن الصحراء وأن يترك قلعته، هذه القلعة التي غطَّتها الرمال بمرور الزمن وتحولَّت إلى كثبان من الرمال، لعلها تحمل معها القلعة إلى حيث تطير.

جوته: الديوان الشرقي للمؤلف الغربي

عظمة الإسلام بالنسبة لعلاقته بالغرب، أنه اقترن بما كنَّه شوامخ رجال الفكر الغربي من إعجاب بالإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام، والكتابة عنه دومًا.

* * *

وهل هناك مَن هو أهم من اسم الكاتب والشاعر والمسرحي «جوته» الذي كتب «فاوست»، و«آلام فرتر» و«تاسو»؛ فكانت علامات في الإبداع الإنساني!

و«جوته» هذا صاحب كتاب مهم يحمل عنوان «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» اهتم فيه بتاريخ الإسلام، وبسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم ينشغل «جوته» فقط بدراسة الأديان، بل اهتم بدراسة التاريخ والأساطير.

ويقول المؤرخون الذين تابعوا علاقة «جوته» بالإسلام أنه كان شديد الاهتمام بدراسة الشخصيات التاريخية وعظماء البشر، وشدَّه في الرسول عليه الصلاة والسلام أنه رجل مفتاح التعرُّف عليه هو قدرته على التسامح مع خصومه. وقد كسب هؤلاء الخصوم فصاروا من أشد الذين يناصرونه.

لفت الإسلام أنظار «جوته» في سنوات مبكرة من حياته، عندما كان طالبًا بجامعة ستراسبورج، ومع التوغل والتعمق في دراسة الإسلام كانت المراجع تزداد عددًا في مكتبة الشاعر الشاب، وقد تتَّبع هذا أنه درس ثقافة الشرق التي ينتمي إليها الرسول عليه الصلاة والسلام.

وفي مرحلة متقدمة من حياته قرأ «جوته» قصائد الشاعر الفارسي «حافظ الدين الشيرازي»، وتأثَّر بموهبة الشاعر الفذَّة. وأحس بالرغبة في الفرار من الرجل الغربي الذي يسكنه، وقرر أن يكتب كتابه عن الشرق، وهو في الخامسة والستين.

ويقول «جوته» في كتابه «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي»: «الشرق والغرب والجنوب، كل هذا يتحطم ويتناثر، فلتهاجر إذَن إلى الشرق في طهره ونقائه، كي تستروح جو الهداة والمرسلين، هنالك حيث الحب والغناء، سيعيدك بنبوغ الخضر شابًا من جديد، إلى هنالك حيث الطُهر والحق والصفاء.

أود أن أقود الأجناس البشرية، فأنفذ بها إلى أعماق الماضي السحيق حيث كانت تتلقى من لدن الرب، وحي السماء بلغة الأرض، دون أن تضني رأسي بالتفكير.»

وفي كتابه، بدا «جوته» كأنه قد وقع تحت سحر الشعراء المسلمين، خاصة من بلاد فارس، منهم الفردوسي، وعبد الرحمن الجامي، ويقرر الشاعر في كتابه أن هؤلاء الشعراء المسلمين قد اتَّسموا بالنبل الإنساني العميق، ويعترف «جوته» أن «حافظ الشيرازي» هو أستاذه، ومنه استمد منهاجه، في الحياة، وتعلَّم الحِكمة ... ويردد:

«من قصائد «الشيرازي» يتدفق سيل من الحياة لا ينقطع، حافل بالاتزان، كان راضيًا ببساطة حياته، فرِحًا، حكيمًا، يشارك في خيرات العالم، ويلقي بنظرة بعيدة عن أسرار الألوهية.»

ومن عنوان الكتاب الديوان الشرقي للمؤلف الغربي؛ فإن المؤلف الغربي المقصود بالطبع هو «جوته» نفسه الذي كان يكتب قصيدته التي يستجمع فيها كل خبراته الحياتية، وكل حُبه للشرق مُردِدًا:

غربت الشمس
لكنها لا تزال تلمع في مراكش
فإلى متى
سيستمر يلمع هذا البريق الذهبي؟

وأهمية هذا الكتاب أنه النبراس لأكثر من مائتيْ عام لرجال الغرب المعجبين لـ «جوته»، والذين لم يكفُّوا عن الرحيل إلى الشرق، أو الكتابة حوله وعن عقائده.

روبير سوليه: ثقافات العالم تبدع نفسها من جديد

هل يمكن استعادة أمجاد التاريخ مرة أخرى؟
أم أن مجد العصر الحديث له طعمه المميز المختلف؟
طرح هذا السؤال نفسه، والناس في كل أنحاء العالم يتتبعون افتتاح مكتبة الإسكندرية؛ فهل هذه المكتبة هي نسخة جديدة من المكتبة القديمة، محاولة إحياء لها، أم أنها شكل جديد من أشكال التقدم الحضاري؟

* * *

أمام هذا الافتتاح، كان على الإبداع أن يقدِّم كلمته، وقد جاء من خلال كتابه نشره الروائي المصري الناطق بالفرنسية «روبير سوليه» تحت عنوان «ثقافات العالم تبتدع نفسها من جديد».

«روبير سوليه» روائي مصري، وُلدَ في القاهرة عام ١٩٤٦م، وسافر إلى فرنسا حيث عمل صحفيًّا في جريدة لوموند، ونشر العديد من الروايات باللغة الفرنسية منها «الطربوش»، و«سيمافور الإسكندرية»، و«المملوكة» و«مزاج» وله العديد من الدراسات عن المصريات، مثل «حجر رشيد» وتُرجم له إلى اللغة العربية كتابه الشهير «مصر، ولع فرنسي» عقب صدوره مباشرة وكتاب بعنوان «قصة الحب المصرية» وهي رواية تدور أحداثها في حي العباسية بالقاهرة، ومن خلال الحروف الهجائية، نعيش تفاصيل قصة الحب التي عاشها اثنان من المصريين.

لكن، ماذا عن مكتبة الإسكندرية؟

أفرد الكاتب مقالًا نُشِر في جريدة لوموند عن الإسكندرية، كمدينة متعددة الثقافات منذ إنشائها، فما إن عرفت المدينة النور، حتى جلبت إليها الفلاسفة والمفكرين ومخطوطاتهم والعلماء ورجال العقائد والديانات المختلفة، وقد ساعد المدينة موقعها المُطلُّ على البحر المتوسط، ذلك البحر الأشبه بالحوض؛ حيث تتشابه ثقافات الأمم الراقدة على ضِفافه أيًّا كانت لغات الأقوام والبشر، ما أهَّلها أن تكون مدينة كوزموليت أو متعددة الثقافة.

والثقافات المتعددة، تعني التعاون والتآلف بين الحضارات والأفكار فليس هناك حَجر لثقافة ضد أخرى، والحوار المتنامي بين الثقافات يعني أنه لن تطغى إحداها على الباقيات، أي أن الكوزموبوليت تعني المعادل الأفضل والأنسب للعولمة، والكوزموبوليت مصطلح قديم ظهر في الإسكندرية، والمدن المماثلة لكن ليس هناك ما يماثل الإسكندرية؛ فلم تعمَّر مدينة بمثلما عُمِّرت وعاشت، إنها مدينة صار عمرها الآن ثلاثة وعشرين قرنًا كاملًا، هضمت كافة الثقافات ولا تزال.

وقد عرفت الإسكندرية فترات الازدهار الكبرى في القديم، وحتى الآن، وقد ساعدت الثقافات المتعددة أن تكون المدينة أكثر انفتاحًا على العالم؛ فعاش فيها أقوام من كل الأجناس دون أن يُحسوا أنهم غرباء، ولم تكن المدينة يومًا منغلقة على نفسها.

ويردد «روبير سوليه» أن مكتبة الإسكندرية ستعيد للإسكندرية شكلها الثقافي القديم، وسيصير لها دور طالما افتقدته؛ لذا فإن الدور الرئيسي للمكتبة هو فتح الأبواب التي أُغلقَت وسط التواصل بين الحضارات، وعليها أن تجذب الباحثين من كل أقطاب الأرض من أجل التبادل المعرفي والثقافي، ولا يجب أن نكتفي بجانب الذكريات والحنين، بل حان الوقت للتطلع إلى أفضل سبل التواصل.

ستراتيس سيركاس: رجل النيل

لعبت البيئة العربية دورًا بالغ الأهمية في صناعة وجدان وإبداع الكاتب الذي عاش فوق أرضها مهما كانت جنسية هذا الكاتب، ومهما تباينت اتجاهاته، فقد ظلَّت هذه البيئة يتردد صدَّاها في وجدانه يطارده ويغازل مخيلته؛ فيكتب دومًا عن تأثره بها وعن علاقته الحميمة بها.

* * *

وقد تباينت النوايا الطيبة والخبيثة التي سكنت في قلب الكاتب وهو يكتب عن علاقته بهذه البيئة خاصة إذا كان قد عاش فوق أديمها، ومن هؤلاء الكاتب اليوناني المعروف «سترايس سيركاس» (١٩١١–١٩٧٠م).

و«سيركاس» من مواليد مدينة القاهرة في أسرة يونانية عاشت فيما بعد بالإسكندرية، ومن أبرز أعماله «أناس غريبو الأطوار» عام ١٩٤٤م، و«أبريل بالغ الصعوبة» ١٩٤٧م، و«نوبة الحصاد» عام ١٩٥٤م، و«رجل النيل» التي استوحاها من إعجابه بالرئيس الراحل «جمال عبد الناصر».

في قصته «الحاوي» يتحدث الكاتب عن شخصية عرفتها الشوارع والحواري المصرية في سنوات القرن العشرين بقوة، إنه الحاوي الذي يمتلك المهارات الخاصة يلم حوله الأطفال والكبار في الميادين، ويقوم بألعاب السِّحر المدهشة، إنه أقرب إلى الصغار، يحس بوجوده بين الآخرين، حتى إذا انتهى من استعراضه، صار وحيدًا بلا أسرة مع قرده الصغير وكلبه.

يصف «سيركاس» بطله أنه لم ينجح منذ أعوام ادخار مليم واحد من أجل الأيام السوداء، وعليه أن يدبر القوت لأسرته الصغيرة التي تتكون من كلبين، وحمار دون أن يأخذ نفسه في الحسبان.

لقد راحت عليه. فالاستعراض الذي يقدمه لم يعد يُعجب الجمهور السريع الملل الذي راح يُعرِض عن هذه الألعاب المكررة، في البداية، كان الناس يضحكون، لكنهم ما لبثوا أن أَلِفوا العرض، وكان يجب على رجُلنا أن يغيِّر الحي، وعندما استنفد كل الأحياء، كان عليه أن يغير المدينة حتى يكبر الصبية، وينسى الكبار، ويأتي أطفال جدد.

وتدور أحداث القصة في أثناء الحرب العالمية الثانية، ذات ظهيرة من شهر ديسمبر عام ١٩٤٤م، وجد الحاوي نفسه، مع فرقته في طريقه إلى القاهرة وعلى مسافة ثلاثين كيلومترًا يقيم في مدينة دمنهور لليلة، وتقوده قدماه إلى قطار حربي، توقَّف في الطريق من أجل أن يتناول الجنود بعض المشروبات ويقضون حوائجهم.

إنهم محاربون جاءوا إلى المدينة من أنحاء متفرقة من العالم، وسرعان ما يحدث تآلف بين الحاوي وبين الجنود هم في أمسِّ الحاجة إلى بعض الترفيه، ويغني الحاوي لهم أغنية جميلة باللغة العربية عن الحرية غنَّاها أبناء الشعب المصري لزعيمهم «سعد زغلول» عندما عاد من منفاه، وسرعان ما تُردَّد كلمات الأغنية، بالعربية بين عربات الجنود، بينما ينفجر الضحك عاليًا، ويكتشف الحاوي أن الحرية مثل النيران، سرعان ما تتآلف وتنتشر.

ويطلب الجنود من الحاوي أن يحكي لهم عن المصريين؛ فيُكلمهم أن المصري العظيم لم يتوقف عن الكفاح من أجل قضايا وطنه طوال التاريخ.

هذه الحكايات تُغيِّر من مشاعر البؤس التي استبدت بالجنود، وسرعان ما تتحوَّل إلى شعور عام وسط الجنود اليائسين، الذين يروح كل وطنهم بلغته؛ حيث يغني لهم الحاوي المصري باللغة العربية، عن الحرية.

شانتال شواف: احمرار

الكاتبة الفرنسية «شانتال شواف»، المولودة عام ١٩٤٧م، هي واحدة من أهم الكاتبات اللائي ينتمين إلى ما يُسمى بثقافة الأقدام السوداء، أي هؤلاء الفرنسيين الذين عاشوا في فرنسا، تزوجوا من أبناء الجزائر، حين كانت تحت الاحتلال الفرنسي، فلمَّا اندلعت الثورة الجزائرية، وانتهيت برحيل الفرنسيين إلى بلادهم؛ فإن أبناء الأَسَر المختلطة لم يعرفوا لنفسهم وطنًا، هل هو فرنسا، أم الجزائر؟

* * *

«شانتال شواف» ابنة لهذه الثقافة المختلطة؛ فأبوها جزائري مسلم، من عائلة شواف «من الشوف أي الرؤية»، أما أمها فامرأة فرنسية ظلَّت على ديانتها بعدما تزوجت من المسلم «شواف» وعاشت طوال حياتها فوق الجزائر. وبعد رحيل الأبوين في عمر مبكر، وجدت «شانتال» نفسها تسافر للتعليم ولتقيم في باريس، وهناك صار أمامها تحدٍّ واضح. في أن تظل مسلمة، وتمَثَّل هذا التحدي في تأليف الروايات التي لا تكفُّ فيها عن ذكر أنها امرأة فرنسية الجنسية، عربية الهوية، مسلمة الديانة.

بدا ذلك بكل وضوح في رواياتها القليلة، ومنها: «المذبح» عام ١٩٧٥م، و«القلب المذموم» عام ١٩٧٦م، و«بذور القمح» عام ١٩٧٨م، و«احمرار» عام ١٩٧٩م، و«غروبيات» عام ١٩٨١م.

في هذه الروايات كلها كان هناك الأب «شواف» بكل ما يتَّسم به من صفات، ونبل أخلاق؛ فهي تحكي أن أمها الفرنسية ماتت وهي تلدها، وتُركَت لأبٍ كان عليه أن يعتني بها؛ ففتحت عينيها على بيت يباركه القرآن الكريم. وتقول الكاتبة إنها تألمت كثيرًا لأنها

كانت بدون أم، هي التي تخيلت دومًا أن لها أمًّا تجدل لها شعرها، وتضع الأحجار الكريمة حول عنقها؛ لكنها ما تلبث أن تتنبه إلى أنها تحلم.

أما الأب، فقد راحت في إحدى رواياتها تحاوره بعد أن مات في حوار داخلي صامت انكشف فيه مدى عذاباتها وآلام؛ لقد رأت أباها يموت ببطء فوق سرير مرضه، وهو يتلو القرآن الكريم باللغة العربية التي لم تكن تجيدها. بدت اللغة العربية غريبة عليها، وحاولت أن تفهمها، وبدأت في تعلُّمها من أجل أن تعرف المعاني.

كان الأب قد مات، وتخلَّى عن دوره في ممارسة الحياة، وتركها شابة صغيرة قلبها متأهب للحب، تبحث عن رجل له نفس صفات الأب، من هشاشة ورقة ونبل وتديُّن، وعندما تُقابل هذا الشاب في فرنسا تخبره أنها مسلمة، وأنه يجب أن يدخل دينها حتى يكتسب قلبها.

وبرغم أن الشاب يعلن إسلامه؛ فإن الفتاة تهجره؛ لأنه لم يكن يتفاهم معها طويلًا.

وأمام هذا الفشل الوجداني؛ فإن الكاتبة في روايتها «احمرار» تعود مجدَّدًا إلى طفولتها. وتتذكر بقوة وقائع حياتها هناك. المنزل الريفي، وصوت الأذان، والمساحات الشاسعة الممتدَّة أمام المنزل. هذه الفضاءات جعلتها تتأمل السماء الصافية دومًا، وتوصلت إلى حالة من الاندماج مع القوى الكامنة في الطبيعة.

وتقول الكاتبة «شانتال شواف» أنها عانت من افتقاد هذه الأجواء عندما وصلت إلى باريس وعاشت فيها، وبفضل الحنين إلى جذورها الأولى تحولَّت إلى كاتبة.

أندريه شديد: واليوم السادس

الكاتبة المصرية المعروفة «أندريه شديد» مولودة في مصر عام ١٩٢٨م في أسرة من أصل لبناني، وقد عاشت في مصر سنوات عديدة قبل أن ترحل إلى باريس عقب أن تزوجت من العالم الكيميائي الشهير «لوي شديد» وعاشت حتى عام ٢٠١١م.

* * *

و«أندريه شديد» شاعرة وروائية وكاتبة مقال، وهي كاتبة مقروءة بقوة في اللغة الفرنسية. وفي أغلب أعمالها؛ فإنها تهتم بالحديث عن التاريخ المصري القديم، وباعتبارها كاتبة مسيحية، فقد كانت شخصيات عديدة من بين أبطال وبطلات رواياتها من المسيحيين، ومنهم الأسرة الصعيدية في رواية «نوم الخلاص».

لكن هناك رواية بالغة الأهمية للكاتبة توغَّلت فيها داخل أجواء الأسر المسلمة، ووصفت وقائع حياة هذه الأسرة إبان أزمة كبرى مرت بها مصر عام ١٩٤٧م، ألا وهي وباء الكوليرا الذي هاجم عددًا من القرى والمدن المصرية، ولم يفرِّق الوباء بين الجسد المسلم والقبطي؛ لكننا عشنا مواجهة خاصة بين فلاحة مصرية مسلمة، وبين مرض الكوليرا الذي قررت أن تتحداه عندما هاجم جسد حفيدها «حسن».

بطلة الرواية اسمها «صِدِّيقة». إنها أرملة ماتت ابنتها وتركت لها الحفيد الصغير كي تربيه، وعندما يأتي المرأة خبر من قرية مصرية أن الوباء قتل بعضًا من أفراد أسرتها؛ فإن «صِدِّيقة» تذهب للمشاركة في الجنازة، وتصف الكاتبة شعائر دفن الموتى عند المسلمين، أنهم يضعون الجثمان في المقبرة، ويتلو الشيخ آيات من القرآن الكريم، ويقوم نفس الشيخ بمناداة روح الميت أن تتماسك عندما يدخل عليها ملاك الحساب، وهو في هذه المرة سيكون مغسولًا من الذنوب طالما أنه مات ضحية الكوليرا.

وعندما تعود المرأة إلى القاهرة تكتشف أن حفيدها صار في حال سيئ للغاية؛ فقد أصابت الكوليرا مُدرِّسه، وجاءت السلطات لأخذه معهم. وهذا الأستاذ هو القدوة الحسنة للتلميذ الصغير، فهو الذي يُعلِّمه حفظ آيات من القرآن الكريم، كما كان مدرِّسًا مثقفًا حنونًا، يتصرف مع «حسن» كأنه الأب البديل.

وتحاول «صِدِّيقة» أن تكون الجدة، والأم، والمدرِّس، الذي أنهكته الكوليرا، والأب الغائب، وتُصدَّم حين تعلم أن حفيدها أصابته الكوليرا؛ لكنها لا تستسلم للمرض اللعين، ولأنها امرأة مؤمنة بالقدر؛ فإنها تحمد الله على ما أصابها، لكنها في نفس الوقت تأخذ الحفيد، وتركب به مركبًا ينطلق فوق صفحة النهر من أجل أن تصل بالحفيد قبل انتهاء ستة أيام؛ لأن الطفل المريض لو وصل إلى شاطئ البحر حيث الجو النقي من الوباء، قبل اليوم السادس، فسوف تُكتب له النجاة.

وبفضل إيمانها بالله، ولأنها لم تكفَّ عن الابتهال إلى الله؛ فإن «صِدِّيقة» تصل إلى شاطئ البحر في الموعد المحدد، وينجو «حسن» من الموت المنتظَر.

سارة فرانسوا: أحبك يا لبنان

هذه هي الرواية الثانية التي تُكتب باللغة الفرنسية حول سيدة من سيدات الطرب العربي.

* * *

الرواية الأولى صدرت عام ١٩٨٨م بعنوان «أم» للكاتبة «مرجريت جوتييه» حول قصة الحب التي ربطت بين الشاعر «أحمد رامي» وسيدة الغناء «أم كلثوم»، وقد مزجت الرواية بين المتخيَّل والواقع، وجاء في أحداثها أن قصة حب حقيقية لم يكن لها أن تنتهي بزواج قد نمت بين المطربة والشاعر ساعدت في تأجج العواطف، وفي كتابة كل هذه الأغنيات الجميلة المليئة بالصدق فكان أجمل ما غنت «أم كلثوم» لجمهورها لعشرات السنين.

أما الرواية الثانية فقد صدرت في باريس في عام ٢٠٠٢م تحمل عنوان «أحبك يا لبنان» للكاتبة «سارة فرانسوا» وكما هو معروف فإن الرواية تحمل اسم إحدى أغنيات «فيروز» الشهيرة.

«فيروز» هي المعادل الغنائي اللبناني للسيدة «أم كلثوم»، مولودة عام ١٩٣٥م، وصارت حياتها بمثابة أغنية عاطفية طويلة تعبِّر عن مشاعرها تجاه زوجها الملحِّن.

لقد ولدت قصة حب فيَّاضة بين التلميذة الصغيرة التي لم تكن تتجاوز السادسة عشر من عمرها، وبين معلمها «إلياس رحباني» الذي غيَّر من مسيرتها؛ فصنع منها نجمة في عالم الطرب لم تعرف لبنان مثيلًا لها.

وتروي الرواية قصة الحب التي نمَت بين الفنانَين الصغيرين؛ فقد تعارفا في مكتب المطرب والموسيقار «حليم الرومي»، والد «ماجدة الرومي»، وأطرف ما في هذا اللقاء، أن الاثنين لم يستلطفا بعضهما في اللقاء الأول، خاصةً «فيروز» أو «نهاد»، لكن لم يلبث

البرود الذي تولَّد بينهما أن تحوَّل إلى حب جارف استمر أربع سنوات قبل أن يتزوجا عام ١٩٥٥م.

وحسب الرواية؛ فإن «منصور رحباني» لم يجد مكانًا لنفسه بين الأخوَين؛ لأنه كان يحب الموسيقى الغربية أكثر، أما «عاصي» فقد كان يحب اللحن العربي، وهو الذي ألَّف أجمل المسرحيات الغنائية التي صنعت مجد الثلاثي: «فيروز، ومنصور، وعاصي رحباني»، بالإضافة إلى أسماء عديدة.

ولأننا لسنا أمام كتاب عن حياة «فيروز»، بقدر ما هو رواية؛ فإن الكاتبة «سارة فرانسوا» راحت تشبِّه «فيروز» بـ «نورا» بطلة مسرحية «بيت الدمية» لـ «هنريك إبسن»، فقد راح «عاصي رحباني» يتصرف على أنه مندوب عن «فيروز» في كل شيء ... «فيروز» سيدة منزل من الطراز الأول، أما هو فقد جعل من نفسه ناطقًا باسمها، يعقد المؤتمرات الصحفية، ويوقع عقودها، وتحوَّلت هي بالنسبة له إلى مفرخة للأبناء تعاني من متاعب مع ابن مريض، ومع آخر التقطه الموت مبكرًا.

لكن في لحظةٍ ما، اكتشفت «فيروز» أنها صارت مثل «نورا» وكان عليها أن تتحرر من قيد زوجها الذي كبَّلها بقوةٍ، وطلبت الطلاق دون عودة، ورأت في ابنها عوضًا عن حياتها التي تفسَّخت، فأرسلت لزوجها نداء حب، للأيام الخوالي من خلال أغنيتها الشهيرة «سألوني الناس» عام ١٩٧٤م من تلحين وتأليف ابنها «زياد رحباني» تقول كلماتها الكثير من المعاني التي تعبر عن موقفها.

جوستاف فلوبير: رحلة إلى مصر

ليس لدى الفرنسيين مَن هو أقرب إلى قلوبهم من — المبدعين — قدر الروائي المعروف «جوستاف فلوبير».

* * *

وليس هناك كاتب أحب المنطقة العربية قدر ما فعل «فلوبير»، ليس فقط لأنه قام بزيارتها في العقد السادس من القرن التاسع عشر، بل لأنه كتب مؤلَّفًا مشهورًا عن هذه الرحلة باسم «رحلة إلى مصر» تم تعزيزها بالعديد من الصور واللوحات التي عبَّر عنها واحد من أهم مصوري عصره، «ماكسيم دوكا» الذي رافق «فلوبير» في رحلته كما أن الكاتب تأثر بأجواء الشرق، عندما كتب رواية «سلامبو» التي دارت أحداثها في شمال أفريقيا، خاصة تونس.

و«فلوبير» الذي عاش بين عامي ١٨٢١ و١٨٨٠م ألفَّ العديد من الروايات المهمة على رأسها «مدام بوفاري» عام ١٨٥١م، أي عقب عودته من مصر؛ حيث أقام في القاهرة مع المصور «مكسيم دوكا» في الفترة من ١٩ سبتمبر ١٨٤٩م، وحتى عام ١٨٥٠م، ومن أهم رواياته الأخرى «التربية العاطفية» عام ١٨٦٤م.

لم يكن الرحيل إلى مصر سهلًا في تلك السنوات، وخاصةً في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

فقد انتشر القراصنة في البحر المتوسط، كما أن حوادث السطو كانت تجعل المغامرين في السفر إلى مصر يترددون عشرات المرات.

وبرغم ذلك؛ فإن «فلوبير» ورفيقه جاءا بناءً على نصيحة من الأديب «نوفال». وبدأت الرحلة في أكتوبر، ووصل إلى القاهرة في نوفمبر، واستمرت حتى يوليو عام ١٨٥٠م.

كان الاثنان في سن متقاربة، الثامنة والعشرين تقريبًا، وما إن وطئت الأقدام أرض مصر، حتى وجد «فلوبير» مَن يُطلق عليه اسم «أبو شنب» باللغة العربية تبعًا لشاربه الغريب الشكل.

جاءت أهمية الرحلة الفريدة، في أن أحد الصديقَين كان يكتب مشاهداته أما الآخر فكان يرسم ما يراه، وجمال هذه التجربة وأهميتها يأتيان من أن الزائرَين موهوبان بقوةٍ وباعتبار أن «رحلة إلى مصر» هي أولى كتابات «فلوبير» الأدبية فقد فوجئ القارئ بمفردات الشاب اللغوية، المرصَّعة بالسخرية حينًا، والدهشة حينًا آخر، والفكاهة والبهجة لدرجة يقال إن الشاب قد استخدم مصطلحات «فلوبيرية» لا تخص أحدًا من الكتَّاب الذين رحلوا إلى مصر.

إنها جُمل تمزج بين الشعور الغربي، والسحر الشرقي، بين المتعة الروحية والحسية، فقد ركب الصديقان النيل، وانطلقا نحو الصعيد، ورقصا فوق صفحة المياه، وزارا المعابد الفرعونية، لم يكن «ديكا» يدَّخر لحظة واحدة دون أن يستمتع وهو يرسم.

هذه الرحلة في وسط القرن التاسع عشر، لم تتوقف عند الفراعين، وآثارهم بل إن الصديقين صعدا إلى بلاد النوبة، والتقيا الناس في وادي حلفا، وهناك استوحى «فلوبير» روايته «مدام بوفاري» التي شرع في تأليفها مباشرةً عقب عودته إلى باريس، وقد اعترف الكاتب أن خرير مياه النيل في وادي حلفا كان يطِنُّ في أذنيه بقوةٍ، وهو يكتب الرواية التي صارت واحدة من أهم الأعمال الإبداعية العالمية.

فولتير: زاديج

«فولتير» هو بلا منازع أهم كاتب في اللغة الفرنسية طوال تاريخها، وهو الذي عاش في باريس بين ميلاده، ووفاته أي بين عامَي ١٦٩٤م، و١٧٧٩م، وله العديد من المؤلفات الخالدة، ومنها «وفاة قيصر» عام ١٧٣٤م، و«قصص شارل الثامن» و«يتيم الصين» عام ١٧٥٥، و«القانون الطبيعي» عام ١٧٥٦م، «كانديد» أو «الساذج» عام ١٧٥٩م، وله العديد من المؤلفات الفلسفية الضخمة البالغة الأهمية.

* * *

هذا الكاتب العظيم كان يرى الإسلام بعينَي العقل فيكتب عن تاريخه، وأبطاله بإعجاب ملحوظ، ومنهم روايته الشهيرة المعروفة باسم «زاديج» أو «صادق» وهي توضح أن حضارة الشرق مفعَمة بالحكمة والروحانيات، وقد جاء هذا الكتاب المنشور في ستينيات القرن الثامن عشر بمثابة رسالة حكمة من «فولتير» إلى الفرنسيين تعني «تعلَّموا الحكمة من الشرق، ومن الإسلام».

وروايته هذه عن فارس شرقي حكيم يتعرض للعديد من المواقف المعقَّدة التي يخرج منها ناصع البياض وهو دائم التصرف بالحكمة، والاتزان فيكشف الفاسدين والحمقى. ومن بين المواقف أن الحاكم المسلم — تدور الأحداث في بلاد فارس — قد أراد اختيار وزير مالية جديد يتمتع بالنزاهة والشرف، وهو الذي عانى من كافة الوزراء السابقين الذين سقطوا أمام بريق الذهب وضعفوا، ويعرض الحاكم على «صادق» مشكلته، ويسأله المشورة، فيقترح عليه «صادق» ما أسماه «ممر الإغراء».

ويستغرب الحاكم بما يقصد «صادق»؛ فيطلب الحكيم أن يأمر الحاكم بعمل ممر مظلم ويملأه بكافة أنواع الأحجار الكريمة من ذهب ومرجان، وماس وياقوت، وهي بمثابة

أحجار كريمة صغيرة من السهل على من يمر بها أن يدسَّ منها في ملابسه؛ لذا أوصى «صادق» أن تكون الملابس التي يرتديها المتقدمون للوظيفة خفيفة، وأقرب إلى الشفافية من أجل كشف ما تحتها.

وبدأت المسابقة، وراح كل متسابق من أجل الحصول على وظيفة وزير المالية أن يمر من ممر الإغراء، ويخرج ليرقص على أنغام موسيقى شرقية، وبالفعل كان كل متسابق يخرج، ويرقص بتثاقل شديد، كأنه يخشى أن يسقط منه شيء ما دسَّه في ملابسه، وتساقطت بعض الأحجار من المتسابقين.

حتى خرج رجل من الممر، وقد بدا بالغ الحرية والتلقائية، وأخذ يرقص ببراعة شديدة على أنغام الموسيقى، يرفع يديه إلى أعلى بكل ما لديه من مهارة.

وهنا نظر الحاكم إلى الحكيم «صادق» وفهم كل منهما المقصود؛ فهذا الرجل لم يُخفِ شيئًا بالمرة من الأشياء الثمينة الموجودة في الممر.

وسرعان ما أمر الحاكم بالقبض على المتسابقين الذين أخفوا قطع الأحجار الكريمة في ملابسهم. وأمر بتعيين المتسابق الأمين كوزير للمالية، وهو يردد للحكيم «صادق» أو «زاديج»: لقد نفعت حيلتك يا صديقي.

وهكذا فإن عمل «فولتير» الخالد جعل صورة المسلم تعني الروحانيات النقية من ناحية، وأيضًا تعني الحكمة التي كم افتقدها الغرب، كما يعترف «فولتير» بذلك.

نيكوس كازانتازاكيس

المدينة هي الطور ...

والكاتب هو اليوناني الموهوب «نيكوس كازانتازاكيس».

تمت زيارته لمدينة الطور عام ١٩٢٦م، وكان اسمها حسبما دوَّن المؤلف في كتابه «رحلة إلى مصر» «رينو» حسبما نشر يوميات رحيله إلى مصر تحت عنوان «ترحال».

* * *

و«كازانتازاكيس» هو مؤلف روايات خالدة منها «زوربا اليوناني»، و«الإغواء الأخير للسيد المسيح»، و«المسيح يُصلَب من جديد»، و«الإخوة الأعداء».

وفي الفصل الخاص بصحراء سيناء كما شاهدها في تلك الحقبة، يعج بالكثير من الرؤى والمشاعر حول شبه الجزيرة، التي شهدت من أحداث التاريخ ما جعلها أرضًا مقدسة لأصحاب العقائد الثلاثة.

وميناء «رينو» كما وصفه «كازانتازاكيس» هو أقرب في وصفه إلى ميناء الطور، فهو كما يقول: «ميناء صغير ساحر في جزيرة سيناء تتبعثر بيوته القليلة على أطراف الساحل، وعلى سطح ذلك البحر الأخضر، تطفو الزوارق الصغيرة الحمراء والصفراء والسوداء، هدوء ممتع. كانت الجبال تكتسي باللون الأزرق الفاتح، والبحر تفوح رائحته العطرية التي تشبه رائحة البطيخ الأحمر، وقد استدار نحو رفيق رحلته الفنان «كالموهوس» وهو يضحك، وقال: لقد ارتكبنا خطأ، ألا ترى؟ لقد جئنا إلى جزيرة إغريقية، لقد جئنا إلى «سيغفو».»

ويصف «كازانتازاكيس» المدينة الصحراوية بمنظورها البسيط البدائي، كأن المدنية لم تقترب قط منها.

«لكن على البعد، تستطيع أن تشاهد أشجار النخيل، وترى جَملَين يظهران أمامك على الطريق بين تلك الأشجار، وكان الجملان يديران رأسيهما نحو البحر للحظة، ويهزان جسديهما وخلال خطوتين أو ثلاث خطوات متمايلة يختفيان بين البيوت.»

«مشينا، وقلبانا يتراقصان ونحن نطأ الرمل الناعم. هل يمكن أن تكون هذه الروعة البسيطة الهادئة مجرد حيلة من حِيَل أفكارنا؟ كان الرمل ممتلئًا بالأصداف البحرية الضخمة، الأصداف البحرية التي اشتهر بها البحر الأحمر. أما البيوت فكانت قد بُنيَت من جذوع الأشجار التي تُستخرج من البحر، ومن المرجان الكلسي «الجيري» والإسفنج، ومن نجوم البحر، والأصداف الفخمة، أما الناس فقد كانوا متألقين بعيونهم اللوزية، وبشرتهم الداكنة، وجلابيبهم البيضاء المتهدِّلة، وكانت فتاة صغيرة بلون الشيكولاتة تلعب على ذلك الشاطئ الرملي الأبيض، وهي ترتدي ثوبًا مُزيَّنًا بأغصان نبات البوجنفليه «الأمريكي».»

وبرغم أن مدينة الطور تقع في أطراف سيناء الجنوبية عند منطقة التفريعة؛ فإن «نيكوس كازانتازاكيس» في كتابه «ترحال» قد لاحظ أنه في عام ١٩٢٦م كان هناك العديد من البيوت الأوروبية المصنوعة ذات الشرفات والحدائق المتناظرة المتشابهة، إضافةً إلى بعض علب الفواكه المتناثرة في الشوارع. وكانت هناك امرأتان تمارسان القراءة تحت مظلتَين خضراوَين كبيرتَين، وكانت بشرتاهما البيضاء القاتلة تجعلك تتلهف شوقًا إليهما.

وشاطئًا بعد آخر، وصلنا في النهاية إلى مُلحقية سيناء، ومن هنا يتوجَّب عليك أن تركب الجِمال للانطلاق نحو جبل «الطور» الجبل الذي وطئه الله، هناك ساحة كبيرة مُحاطة بواقع الرهبان، وبيوت الضِّيافة، ومدرستان إغريقيتان للبنات والأولاد. ومخازن، ومعصرة للزيوت، ومطابخ، وفي منتصف الساحة تنتصب الكنيسة. ويُتوِّج كل هذا المشهد أعظم معجزات هذه البرية كنيسة «الأرشمندريت» ذلك المكان الدافئ، والعجيب لقلبِ كل إنسان.

الكاتب «نيكوس كازانتازاكيس»، ينطق اسم جبل الطور باسمه العربي، لكنه يلقِّب المدينة باسمها القديم، وهو يتوقف عند المكان باعتبارها بؤرة تاريخية قديمة، التي جاءتها أجناس عديدة عبر الزمان، وذُكرَت في الكتاب المقدس، ثم يردد: «كأن البحر الأحمر يتألق ويلتمع من خلال النافذة. وفي الجهة المقابلة، كانت جبال الطور الغارقة في الضوء تتراءى لنا من خلال الضباب.»

ويستكمل رحلته مرددًا أن الرجال الثلاثة الذين يقودون الجِمال هم «صفحة» و«منصور» و«عودة».

«كانت مهمة هؤلاء الرجال أَخذِنا إلى قمة جبال سيناء، وقد وصلوا بجلابيبهم الملونة، وكانوا يرتدون قبعات منسوجة من وبر الجِمال على رءوسهم، وكان كل واحد منهم متقلِّدًا بحزام الكتف. كانوا بدوًا ممشوقي القوام. نحيلي الأرجُل، بعيون مستديرة، كعيون الصقر ... وقد قاموا بتحيتنا بوضع أيديهم على قلوبهم، وشفاههم وجِباههم.»

ومن المعروف أن «كازانتازاكيس» يميل إلى أن يصف المكان، من خلال ما يتَّسم به من مكانة في التاريخ، أما الأشخاص، فيتحدث عنهم من خلال وجهة نظره كروائي، وكأنه يكتب نصًّا إبداعيًّا يُعبِّر فيه عن رؤيته للبشر.

«وكان كل واحد منهم يقود جَمله، وكان كل جَمل يحمل على سنامه الطعام، والخَيمة والمعاطف العسكرية، والبطانيات — أي عدَّة الرحلة — فقد كان يتحتم علينا أن نبقى في الصحراء ثلاثة أيام بلياليها.»

«تعلَّمنا بضع كلمات. وهي أهم الكلمات التي لا غِنى عنها خلال إقامتنا مع هؤلاء البدو، التي دامت ثلاثة أيام، وهذه الكلمات هي: النار، الماء، الخبز، الله، والملح.»

«وقد أنيخت الجِمال بهوادجها ذات الأشرطة الأرجوانية والسوداء، وهي تئن بسخطٍ، وكانت عيونها الجميلة تلتمع بأنَفة لا رِقة فيها.»

لم يتوقف الروائي «كازانتازاكيس» طويلًا عند مدينة الطور؛ فهي مدينة قليلة البشر، بُنيَت وسط الصحراء، لكنه كان مبهورًا بالصحراء التي تمتد من حولها، والتي قام بالسفر في أدغالها مع مجموعة من مرافِقيه، خاصة رجال الدين، ومنهم الشَّماس القبرصي «بوليكاريوس» الذي كان يقوم بإحضار التمر في إحدى القُفف، وقام بتوزيعه على البدو والجِمال.

يقول الروائي اليوناني، كأنه يكتب نصَّه الإبداعي، أكثر منه وصف للمكان على طريقة أدب الرحلات: «انطلقنا في رحلتنا؛ حيث غرقنا كليًّا في هذه الصحراء التي لا نهاية لها، وفجأة، وبعد خطوة واحدة من الدير، أصبحت الصحراء تبدو رمادية مترامية وقاحلة.

كان إيقاع خُطى الجِمال المتماوج والصبور يمتد إلى أجسادنا، وكأن الدم ينظم إيقاع حركته مع هذا الإحساس، وحين يفيض الدم ويتدفق تسري الروح في جسد الإنسان، وكان على الوقت أن يحرر ذاته من المهاجع الرياضية، نسبةً إلى علوم الرياضيات، التي حشر نفسه فيها، بناءً على الذهنية العقلانية الغريبة. هنا مع تأرجح «سفينة الصحراء» يجد الوقت إيقاعه الأزلي؛ حيث يصبح إحساسًا متدفقًا غير مرئي، إنه دوار صوتي خفيف يحوِّل الفكر إلى حلم يقظة وموسيقى.»

وكما أشرنا فإننا أمام نص إبداعي، ولعلَّ هذا هو السبب الذي دفع بالجريدة اليونانية «أليجنيروس لوجوس» أن تدفع تكاليف سفر «كازانتازاكيس» كي يزور المنطقة للكتابة عنها.

لقد امتدت الرحلة من الصحراء إلى الجبال، التي يقول الكاتب أنها تخلو من الماء والحميمية: «الجبال التي تحتقر الإنسان وتغتصبه، فجأة سمعنا صوت طير حجل برِّي وهو يضرب بجناحَيه مطلِقًا صوتًا نُحاسيًّا على نتوءات الكهوف الصخرية، وبين فينة وأخرى، كان أحد الغربان يُحلِّق فوق رءوسنا بحركة دائرية وكأنه يريد أن يتشمَّمنا قبل أن يفكر بما يتوجَّب عليه فعله.»

وكما سبق الإشارة؛ فإن الكاتب يعود دومًا للحديث عن الناس، خاصةً سكان المدينة، وما حولها من واحات صغيرة: «إذا مررت بواحة نخيل لرجل غريب، وأكلت من ثمرها، وتركت بذور التمر على شكل كومة حول الشجرة؛ فإن صاحب واحة النخيل سيُسرُّ كثيرًا، لأنه أحسن لعابر سبيل جائع؛ لكن إذا وجدت بذور التمر متناثرة بعيدًا عن الشجرة؛ فإن صاحب الواحة سوف يغضب كثيرًا، ويبدأ بمطاردة اللص، ويثأر لنفسه من جِماله وماشيته.»

جيرار دوفيبه: مؤامرة في القاهرة

ظلت روايات التجسس هي الأكثر مبيعًا في العالم؛ لأنها تحاول الكشف عن مناطق الغموض في أشد نقاط العالم جذبًا للانتباه: السياسة.

* * *

وفي رواية التجسس يمكن أن نرى الأحداث تدور في أكثر من مدينة، وقد اهتم الكاتب الفرنسي الشهيرة «جيرار دوفيبه» بالتجوال في كل أنحاء العالم، من أجل تصوير عوالم الجواسيس داخل المدن المختلفة.

وقد صدرت للكاتب أكثر من عشرين رواية تدور أحداثها بين بيروت وبنغازي والرياض ودمشق وعمَّان والكويت، وغيرها من المدن؛ لكن روايته «مؤامرة في القاهرة» هي أهم هذه الروايات جميعًا، وفيها وصفٌ دقيق لشوارع العاصمة وأحيائها وفنادقها، كأنما المؤلف «دوفيبه» قد عاش فيها أكثر من نصف قرن.

الرواية منشورة عام ١٩٨١م، أي قبل اغتيال الرئيس الراحل «أنور السادات» ببضعة أشهر، وتجيء حساسية هذه الرواية أن الكاتب قد تصوَّر أن عملية إرهابية يتم تدبيرها في أحد الفنادق الكبرى بالمدينة، يمكن أن تجعل أربعة من رجال الاستخبارات الذين ينتمون لأربع دول يجتمعون عندما اكتشفوا مؤامرة أمنية كبرى.

اجتمع هؤلاء الأربعة من أجل التوصُّل إلى الرجل الذي كان وراءه انفجار قنبلة في صالة الرقص بالفندق، مات فيه خمسة من السائحين العرب.

الضابط الذي يمثِّل مصر في هذا الاجتماع اسمه «محمد رياض»، ودوره هو كشف مؤامرة تستهدف شخصية مرموقة، وأن هناك العديد من التيارات تسعى لتنفيذ هذه الخطة، التيار الأول متطرف يقوده شخص يُدعى «منصور قارون»، وهذا الرجل يسكن

في بيت فقير، لكنه في نفس الوقت، يمتلك استراحة في منطقة الهرم، وفيها يخفي صاروخ «سام٧» يمكن إطلاقه لينفجر في الهدف، ويستعين «قارون» بضابط متقاعد يبحث لنفسه عن دور سياسي.

و«منصور قارون» هذا يحلم بقيام دولة دينية في مصر، وهذا الرجل محطٌّ أنظار دائمة من قِبل رجال الاستخبارات؛ لذا فهو يغيِّر المكان الذي يقيم فيه من وقتٍ لآخر، وقد استطاع الحصول على الصاروخ من خارج مصر.

وأغلب الشخصيات في الرواية مصريين، خاصةً الذين يدبِّرون المؤامرة، أما رجال الاستخبارات الأربعة فيُمثلون دولًا عديدة، منها فرنسا والولايات المتحدة، بالإضافة إلى «محمد رياض»، ويصوِّر الكاتب الفرنسي رجال الاستخبارات المصرية على أنهم مدرَّبون جيدًا، ويعرفون كيف يُوقعون بفرائسهم في الوقت المحدَّد، فهم يدفعون «منصور» إلى الانطلاق في الصحراء؛ حيث ستكون صحراء الفيوم بمثابة مقبرته الأخيرة، وفي هذه الصحراء أيضًا فإن العطش يقوم بدور العدالة بالنسبة للعناصر الأجنبية المشاركة في المؤامرة.

وكما أشرنا؛ فالمؤلف قد كتب في هذه الرواية التفاصيل الدقيقة لجغرافية مصر، والقاهرة بشكل خاص، بشكلٍ يؤكد أنه واحد من أبنائها.

وتجيء أهمية هذه الرواية أن المؤلف ينشر سنويًّا عشرين رواية، تبيع في فرنسا وحدها ملايين النسخ.

أندريه جيد: اللاأخلاقي

«أندريه جيد»، روائي فرنسي عاش بين عامي ١٨٦٩ و١٩٥١م، وحصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٧م، وللكاتب العديد من الروايات المُترجَمة إلى اللغة العربية منها «الباب الضيِّق» من ترجمة الدكتور «طه حسين»، و«السيمفونية الرعوية» من ترجمة الدكتور «محمود علي مراد»، كما أنه زار مصر أكثر من مرة.

* * *

«أندريه جيد» عاش فترة طويلة بين الجزائر وتونس؛ حيث ترك له أبوه ضيعة صغيرة في مدينة بسكرة، كان ينزل إليها في الشتاء من أجل الاستشفاء من مرض الصدر الذي أصابه وهو شاب صغير.

وقد أتاحت له هذه الإقامة التعرف إلى المسلمين وعاداتهم في الريف التونسي، وربطته صداقة قوية بالعرب الريفيين البسطاء، وأحب العيش بينهم.

وفي روايته المعروفة «اللاأخلاقي»؛ فإن الكاتب يتحدث عن رحلته مع زوجته الشابة «مادلين» المصابة بداء الصدر مثل زوجها إلى الضيعة التونسية. وهي تأتي إلى المكان لأول مرة، في البداية يبدو لها موحِشًا؛ لكنها في المساء تسمع صوت أغنيات جميلة تأتي من المساكن القروية القريبة؛ فتسأل زوجها عمَّن يغني، وتعرف أنهم مجموعة من الأطفال العرب الذين يجتمعون في المساء تحت الشجرة القديمة لتبادل السمر، والحكايات القديمة مثل الشجرة، وتهفو المرأة إلى أن تلتقي بالصغار، وفي ساعة متأخرة من الليل تسمع صوتًا آخر ينادي كأنه يناجي السماء، ويخبرها الزوج أنه صوت صبي صغير يؤَذِّن لمناداة الناس للذهاب إلى صلاة الفجر في مسجد القرية، وعندما تشرق الشمس يأتي بعض الصغار، ويَبدون أكثر نظافة من غيرهم من الأطفال، إنهم عائدون من المسجد.

ويلفت أنظار المرأة صبي صغير، وتعرف أنه الذي كان يقود زملاءه في الغناء ليلة أمس، كما أنه يقوم برفع الأذان أثناء مرض أبيه.

هذا الصغير يعاني من حاجة واضحة، وبرغم ذلك فهو لا يشكو، ولكن لا يمنع هذا أنه حزين، يبدو شاردًا، وهو يرفض ما تعطيه إليه «مادلين».

وفي مساء نفس اليوم تنتظر «مادلين» أن تسمع صوت الصغير؛ لكنه يبدو كأنه توقف عن الغناء. وتذهب للبحث عنه في منزله، وتكتشف أن أباه قد مات، وأنه لم يَعُد له عائل.

وبعد أن تنتهي مراسيم الجنازة تطلب «مادلين» من الزوج أن يأتي ليعيش الصغير معهما في الدار، ويقول الطفل إنه لا يريد أن يسبب إزعاجًا لأهل البيت؛ فهو يواظب على الصلاة، ولا يريد أن يضايق أحدًا من المنزل.

وفي البداية تتصور «مادلين» أن التغيُّر الذي حدث في حياة الصبي سيترك أثرًا عميقًا في سلوكه؛ لكن هذا أمر لم يحدث بالمرة، وبعد عدة أسابيع تكتشف الزوجة أنها بدأت تسعل أقل، وأن صدرها قد طاب كثيرًا، ويصبح الفراق صعبًا، وتقرر عدم الرحيل إلى فرنسا؛ فهي لا تود أن تترك الصبي الذي صار بلا عائل، والذي فضَّل البقاء في بسكرة عن الرحيل إلى فرنسا.

ولا يجد الزوج سوى الامتثال لزوجته، أيضًا في بسكرة، فهو يشعر أيضًا بالتحسُّن في صحته.

خوان جويتسولو: خوان بلا أرض

لم ينسَ الكاتب الإسباني «خوان جويتسولو» أنه ينحدر من أسرة عربية مسلمة أجبرتها محاكم التفتيش على اعتناق المسيحية كما قال في كتابه «حفل صيد».

* * *

لذا فإن الكاتب قرر أن يشدَّ رحاله وقلمه إلى العالم العربي، بأن يعيش فيه على فترات متقطعة طويلة وأن يكتب عن البلاد العربية، وعن العرب المسلمين.

من بين المؤلفات الشهيرة للكاتب المولود في يناير عام ١٩٣١م، هناك «ألعاب يدوية» و«صراع في الفردوس» و«أعياد» و«يوميات جزيرة» و«من أجل الحياة هنا» و«مقبرة» و«حفل صيد».

حصل خوان على العديد من الجوائز الأربعة عن رواياته، ولعل أشهرها جائزة فيمينا عن روايته «خوان بلا أرض» التي يتحدث فيها عن هجرته للحياة في المغرب، ويقول الكاتب أنه لم يشعر أنه بعيد بالمرة عن وطنه: «الآلام الأشد وجعًا، وارتجافات الجسم الأبوي، والظلم والشيخوخة، يمكن أن تصيبك فتحس أنك في دوامة، وعليك أن ترضى بوحدتك في كبرياء.»

وقد رأى الكاتب أن الآخرين يأتون إلى المغرب كسائحين، أما هو فقد صار ابنًا للأرض، وأحسَّ بأن كل هذه المدن المغربية الواسعة الجميلة لم تكن سوى إطار ضيق من الصعب الخروج منه.

يقول عن تجربته في مدينة مراكش: «إلى هنا جاء أدباء كثيرون، اختاروا المدينة كمنفًى واختاروا أن يموتوا هناك، وأن تُدفن أجسامهم، ومنهم «جان جينيه».»

وعن الصحراء العربية الممتدَّة أمام المدن يقول: «تدعوك الصحراء إليها، واسعة، تنطلق بلا حدود، كأنها رغبتك التي تغوص في جغرافيتها الكثيفة وتتحسس صدرها برأسك النحاسية.»

وعن ثقافته الإسلامية يقول: «جذبتنا أمومة لأسلافنا ووجدنا فيها الملجأ الآمن.»، وقد تحدث إلى جريدة الحياة اللندنية قائلًا: «أعتقد أن رحلاتنا داخل العالم العربي، والثقافة الإسلامية تنمُّ عن حاجة تكاملية، وهي شبيهة بحاجة غالبية الكتَّاب والمثقفين العرب الذين جاءوا للاستقرار في الغرب.»

ويكمل قائلًا: «أعتقد بوجود فارق أساسي بين الكاتب الإسباني والكاتب الفرنسي فيما يخص الإسلامي؛ لدى الإسباني شعور مزدوج تجاه الإسلام الذي يمثِّل له في نفس الوقت إطارًا حميمًا. لقد بذلت جهدي كرجل ينحدر من أجداد مسلمين، ووضعت نفسي طوعًا في دائرة التناقض الخصب التي يعيشها بداهة الكتَّاب القادمين من العالم العربي؛ بين الأتراك، والباكستانيين وُلدوا وترعرعوا في فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا.»

وكما عاش «خوان جويتسولو» في المغرب لسنوات طويلة، أقام أيضًا في القاهرة على فترات متقطعة طويلة، وقد اعترف أن «شجرة الأدب الإسباني لها جذور كثيرة من بينها جذور عربية بالنسبة لي، وفي مرحلة ما من مسيرتي الأدبية، وجدت نفسي بحاجة للاقتراب من الينابيع العربية، وذلك بهدف اكتساب مقدرة معرفية في آلية العبقرية العربية.»

الطاهر بن جلون: طفل الرمل –
ليلة القدر

«الطاهر بن جلون» هو أول كاتب عربي يفوز بأكبر جائزة أدبية في أوروبا عن روايته «ليلة القدر» عام ١٩٨٧م، وهو روائي وشاعر وكاتب مقال. مولود في طنجة بالمملكة المغربية عام ١٩٤٤م.

* * *

وقد كرَّس بن جلون كافة كتاباته للدفاع عن القضايا العربية خاصةً قضية فلسطين، من خلال إبداعاته أو كتاباته المنتظمة في جريدة لوموند الفرنسية حيث يعمل في القسم الأدبي منذ استقراره هناك عام ١٩٧٠م.

من بين روايات الكاتب هناك «ماتت أشجار اللوز متأثرة بجراحها» و«ندوب الشمس» و«يوم من الصمت في طنجة» و«الحب الأول هو دائمًا الحب الأخير»، و«فندق الفقراء».

أما الرواية التي حصل الكاتب عنها على جائزة جونكور بعنوان «ليلة القدر» فهي في الحقيقة روايتان متكاملتان، نشرهما على فترتَين متقاربتَين، عامي ١٩٨٥، و١٩٨٧م، الأولى تحمل اسم «طفل الرمل» وهي تدور حول رجل مسلم يعيش في قبيلة صغيرة، وهو مثل بقية أبناء القرية، وأيضًا مثل الرجل الشرقي بشكل عام، والمسلم بشكل خاص يميل إلى إنجاب الذكور؛ فالذكر هو حماية لأسرته. وهو امتداد للأب، لكن هذا الرجل المؤمن بقضاء الله يعاني من أنه لم ينجب سوى البنات، ففي كل مرة تأتيه القابلة بالخبر السيئ: «بنت».

وهو يشكر الله على ما رزقه من بنات؛ لكن أهل القبيلة يسمونه بأبي البنات، وهو يشعر بالعار الدائم لبنائه السبع، إلى أن تحمل الزوجة للمرة الثامنة، ويقرر الرجل أن

يكون الوليد القادم ولدًا مهما كان، وعندما تلد الزوجة بنتًا كالعادة، يتحدث إلى القابلة، ويطلب منها أن تخبر الناس أن الوليد «ذكر».

وتتم تربية الأنثى على أنها ولد اسمه أحمد، وتصرفاتها وكافة ما يتعلق بها، إنها ابن الرمل الذي لا يعرف متى يكون ذكرًا، ومتى يصير أنثى.

أما رواية «ليلة القدر» التي تُعتبر الجزء المكمِّل للرواية السابقة؛ فإنها تبدأ ليلة القدر المباركة؛ ففي هذه الليلة يودع الأب الحياة ويستدعي ابنه ويطلب منه رعاية الأسرة بكل ما لديها من شهامة ورجولة.

لكن الشاب يتساءل: هل أنا رجل أم أنثى؛ فالتظاهر الخارجي بالرجولة لا يخفي الأنثى الراقدة في داخلها. وتشعر الفتاة بالحَيرة، إنها حبيسة اسمها وجسدها، لقد مات الأب وتزوَّجت أخوَاتها البنات، أما هي فوسط الريح.

والتردد «أنظر إلى نفسي كفتاة أخفاها أبي في ثياب ولد، لإحساسه بالخزي من هويتي كأنثى، إنها إرادة الله، ولن أعترض على هذه الإرادة أبدًا.»

وبالفعل تقرر الفتاة أن ترحل عن القبيلة، أن تخلع ملابس الولد الخشنة التي طالما ضايقت جسدها، وتنطلق في الصحراء باحثة عن تجربة مختلفة، تجربة أن تكون على طبيعتها، أن تكون فتاة. كما شاءت السماء. وهي تردد:

«كنت أعرف أنني سوف أترك خلفي الحكايات المليئة بالغرابة.»

جيلبير سنوحي: محمد علي آخر الفراعنة

الكاتب الوحيد في العالم العربي، الذي استوحى من حياة «محمد علي الكبير» رواية كان هو «جورجي زيدان»، أما بقية الكتب التي نُشرت عن هذا الزعيم العربي الذي اختلفت حوله الآراء؛ فكان أغلبها بمثابة دراسات تاريخية حول الرجل الذي حكم بلاده في أطول فترة من بين أقرانه من الذين حكموا مصر في القرنَين الماضيَين.

* * *

أما الكاتب العالمي الوحيد الذي استوحى من حياة «محمد علي» رواية، فهو «جيلبير سنوحي»، الذي استوحى اسمه من اسم فرعوني، هو «سنوحي المصري» الذي استوحى عنه أيضًا الكاتب الفنلندي «ميكافالتاراي» روايته الشهيرة «المصري».

و«سنوحي الكاتب» مولود في القاهرة عام ١٩٤٧م، ودرس في مدارس الجزويت وهو يُعتبر واحدًا من الأدباء الفرنسيين المعاصرين الأكثر فهمًا لثقافة الشرق، وعلاقاتها بثقافة الغرب، نشر روايته الأولى «القرمزي والزيتوني» عام ١٩٨٧م، ثم «ابن رشد وطريق أصفهان»، ثم «المصري»، و«بنت النيل»، ثم جاءت روايته «كتاب الزبرجد» عام ١٩٩٦م، وفي العام التالي نشر روايته «محمد علي آخر الفراعنة» كما نشر رواية حول العرب في غرناطة والأندلس. وحصل عنها على جائزة المكتبات.

وقد حاول الكاتب أن يناصر «محمد علي»، واعترف أنه صانع النهضة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ويتتبع الكاتب رحلة «محمد علي» من بلاده تركيا إلى أن استقر به المقام في مصر، ومواقفه من الحملة الفرنسية، ولقاءه الأول مع «نابليون بونابرت»، وعلاقته بالفرنسيين، فـ «محمد علي» هو أول من فكر في استجلاب

التجربة الحضارية الفرنسية إلى بلاده، وأوفد العلماء والمفكرين إلى باريس خاصة «رفاعة الطهطاوي»، كما كان أول من فتح المدارس الفرنسية في القاهرة والإسكندرية.

وفي رواية تبلغ صفحاتها الخمسمائة، يعترف المؤلف «سنوحي» أن «محمد علي» قد نجح في إخراج مصر من عصر الظلمات الذي استمر حقبة طويلة، ونقلها من التقليدية التي استبدَّت بها إبان الحكم العثماني إلى المعاصرة، وقد استعان في ذلك بالعلماء والمهندسين الفرنسيين في مجالات متعددة، فمنحهم الألقاب التشريفية، ومنها لقب «البك» و«الباشا».

وقد تتبع الكاتب رحلة «محمد علي» من خلال قيامه بإرسال ابنه «إبراهيم باشا» إلى البلاد المجاورة لفتحها، ومنها السودان، وسوريا، والجزيرة العربية ووصلت الجيوش حتى مدينة إسطنبول، فهدد بذلك السلطان العثماني، وفي عام ١٨٣٩م كانت الشيخوخة قد استبدَّت بالرجل، وقامت الدول الأوربية بالتحالف لإيقاف زحفه، خاصة الإنجليز الذين وضعوا حدًّا لهذا التقدم المذهل.

وقد وجد «جيليبر سنوحي» نفسه أمام رواية تكتب نفسها؛ فالوقائع بها أكثر قوة من التخيل الذي يمكن لأي كاتب أن يكتبه فوق صفحات رواية، وقد اعترف الكاتب أن بلاده فرنسا قد وقفت عاجزة عن مساندة رجُلها؛ فلم تُقدم له من الدعم سوى الكلمات الجميلة المنمَّقة.

وبعد رحيل «محمد علي»، وفي عام ١٨٤٩م، وجد الابن «عباس الأول» نفسه أمام تركة ثقيلة من الانتصارات والهزائم والمشاريع الكبرى. فكان أشبه بالمُحاصَر بين الرمال والرياح، ومع ذلك فإن شبح «محمد علي» ظل لفترة طويلة جاثمًا فوق خصومه، يخافون من اسمه لمجرد ذكره.

لورانس داريل: رباعيات الإسكندرية

لم تأتِ رواية أدبية عن الشرق والعرب بشهرة لكاتبها مثلما حدث للروائي البريطاني «لورانس داريل» «١٩١٢–١٩٩٠» مع رباعية الإسكندرية.

* * *

رباعية الإسكندرية هي أربع روايات ضخمة الحجم، تدور أحداثها في مدينة الإسكندرية إبان الحرب العالمية الثانية، استوحاها الكاتب من حياته في الثغر؛ حيث عاش هناك بضعة سنوات تعرَّف خلالها على الكثير من الأجانب والعرب، تبعًا لوظيفته كواحد من الملحَقين الإعلاميين للقنصلية البريطانية هناك.

الروايات الأربع هي «جوستين» صدر عام ١٩٥٧م، ثم «بالتازار»، و«مونت الياف» عام ١٩٥٨م، ثم صدر الجزء الرابع «كليا» عام ١٩٦٠م.

وبرغم أن الرواية عن المدينة العربية؛ فإن الأبطال الرئيسيين للرواية هم من الأجانب الذين جاءوا للعيش في المدينة تبعًا لظروف الحرب، مما جعلها مدينة تمزج بين ثقافات متعددة، لكن قد لا تعرف أن الشخصية العربية التي تحدَّث عنها المؤلف في هذه الرواية، كانت شبه هامشية باعتبار أن الشخصيات الرئيسية جاءت من بريطانيا، وصنعوا فيما بينهم ما يشبه الدائرة المغلقة، التي لا تنفتح بسهولة للآخرين، حتى ولو كانوا من أبناء الوطن الذي يعيشون فيه.

ففي بداية الرباعية ترى رجلًا ميسورًا يُدعى «نسيم» يعيش في المدينة، إنه من كبار التُجار لهم باع طويل في سوق القطن، وهو معروف في البورصة، يجيد التحدث بأكثر من لغة، ويعرف لغة الأرقام، كما أنه رجل متعدد العلاقات النسائية؛ فتبعًا لما يتمتع به من ثراء فإنه يعرف الكثيرات من النساء، ومن بينهن «ميليسا» التي عاشت معه فترة غير

قصيرة، وأنجبت منه طفلًا قامت بتهريبه إلى اليونان، حتى لا يقوم أبوه باستعادته بعد أن انفصلا.

و«ميليسا» هذه تعمل في أحد الملاهي الليلية، لكن «نسيم» لا ينسى أنه رجل شرقي، ولا يحب أن تتم تربية ابنه في بيئة غربية، وهو يكرِّس كافة ما لديه من إمكانات من أجل استعادة ابنه العربي، هو رجل ذكي، وسيم، في داخله سمات الشرقي الغيور على الالتزام بعاداته الاجتماعية، وهو يبدو مستهينًا كثيرًا حين تربطه علاقة رسمية بامرأة غير مصرية؛ ففي الوقت الذي يتعامل مع زوجته «جوستين» بمفهوم آخر للشرف؛ فإنه لا يريد لابنه الصغير أن يتربى خارج الوطن.

وبالفعل، فإن «نسيم» ينجح في استعادة ابنه من اليونان، ويتركه يتربى في كنف أمه «ميليسا» المصورة، والتي يتولى الصرف عليها.

و«نسيم» في الجزء الثالث من الرباعية، كما يرسمه الكاتب «مناضل، ووطني، يقوم بتدبير المحاولات لتدمير النفوذ البريطاني في المنطقة العربية»، ولأنه رجل وثيق الصِّلة بالبريطانيين أنفسهم؛ فإن السفير البريطاني يتحرج كثيرًا في الإبلاغ عنه، وعن خططه، ويسعى إلى التقليل من تقرير مكتوب ضد النشاط السياسي الذي يمارسه «نسيم».

وفي هذا الجزء الثالث من الرواية، يكشف الكاتب سبب التوتر الدائم الذي أصاب «نسيم»، فهو ليس أبدًا بسبب الغيرة على زوجته الخائنة الأجنبية «جوستين»، بقدر ما هو قلق خشية أن تكون الاستخبارات البريطانية قد عرفت بأمر نشاطه الوطني من أجل إجلاء الإنجليز عن مصر، والمنطقة العربية.

«نسيم»، إذَن، شخصية عربية تعرف هدفها الوطني بجِدية، وتغلِّف سلوكها الجاد ببعض التصرفات الهوجاء، من أجل إخفاء الرسالة الوطنية التي يضطلع بها حتى لو أدَّى ذلك إلى تشويه بعض الحقيقة.

سام دونكان: «السويس»

المدينة هي «السويس» ...

والمؤلف هو «سام دونكان» ...

فرنسي الجنسية. عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كتب ما يُسمى بالرواية الشعبية، وزار مصر إبان حفر قناة السويس، وله العديد من الروايات ومنها: «قطار نحو الغرب»، و«المجد الباقي»، وغيرها.

* * *

ليست لدينا معلومات مؤكَّدة عن ميلاد الكاتب ووفاته، وحياته الخاصة ... لكن كل ما يُذكر للمؤلف هو روايته الشهيرة التي تحمل عنوان «السويس» عام ١٩٣٨م، وشاركته البطولة الممثِّلة «لوريتا بونج»، و«آنا بيللا». والفيلم من إخراج «آلان داون».

وهذا الفيلم هو السبب الأول الذي لفت الأنظار إلى المؤلف «سام دونكان» الذي كان قد رحل عن عالمنا في ذلك العام. وبسبب الفيلم وحده ظل «دونكان» في دائرة الضوء، أما الرواية نفسها فقد اختفت في التاريخ، ولم يَعُد أحد يذكرها إلا مقرونة بالفيلم.

تحمل الرواية اسم مدينة السويس، والمدينة التي تدور الأحداث فيها تختلف تمامًا عن المدينة التي نعرفها اليوم. أو في القرن الحادي والعشرين. تلك المدينة المزدحمة الآن بالبشر القادمين من الدلتا ومن أنحاء مختلفة من الوطن.

ليست المدينة، كما صوَّرها المؤلف، سوى حلم للمهندس الشاب الفرنسي «فرديناند ديليسيبس» الذي راح يردد، وهو في سفينة متجهة نحو الإسكندرية في زيارة لمصر لأول مرة: إنه حلم ... لكنه ليس مستحيلًا.

لقد أخذ يفكر في إمكانية حفر قناة صغيرة تربط بين البحرين الأبيض والأحمر، ويمكن للسفن أن تعبر بسهولة إلى الهند؛ فلا تقطع تلك المسافة الطويلة التي تتم حول إفريقيا عبر رأس الرجاء الصالح.

وطوال الطريق من مارسيليا إلى الإسكندرية، ثم من الإسكندرية إلى القلعة كي يقابل الوالي العجوز «محمد علي باشا»، لم يَكُفّ عن مراجعة التصميمات الهندسية التي جاء بها معه. ووصل «فرديناند» إلى القلعة، كان اللقاء.

ردد الشاب الفرنسي وهو يدقق في وجه الوالي: يا إلهي، لقد صار عجوزًا.

وقرأ على ملامحه صورة الصقر الكَهل، الذي ركب جنوده البلاد إلى الجزيرة العربية، والبلقان. إنه إمبراطور شرقي يذكِّره بـ «نابليون بونابرت».

ولم يكن اللقاء كما توقَّع، فالوالي مريض، ولم يستطع أن يستوعب المشروع الذي جاء به «ديليسبس» كاملًا. ومع ذلك فإن الشاب لم يفقد الأمل. وسأل أين «إبراهيم باشا»؟

وجاء الرد: إنه خارج البلاد ... سوف يعود قريبًا.

وفي الليلة الأولى التقى بالأمير الشاب «سعيد» الذي درس في فرنسا، والتقاه ذات يوم هناك، قال له الأمير: أحوال الباشا الكبير الآن لا تسمح له أن يفكر في هذه المشاريع الضخمة.

وأحسَّ المهندس الشاب بالحزن، وقرر العودة إلى بلاده، وأثناء الرحلة فقدت مصر واليها «محمد علي» الذي استطاع أن ينقلها من عصور قديمة، كي تبدأ دخول التاريخ الحديث.

وردد المهندس الشاب يومها: الأحلام لا تموت.

وكان عليه الانتظار، وظل كلما تطَلَّع إلى أوراق المشروع يحس بأن الوقت لم يحن بعد. وانشغل «فرديناند» في أمور حياته الخاصة والعملية إلى أن عرف بالخبر، أن صديقه القديم الأمير «محمد سعيد باشا» قد صار حاكمًا لمصر، فردد في داخله: لقد تَحمَّس للفكرة وأخبرني أن الأحلام لا تموت.

وقرر المهندس الشاب أن يرحل مرة أخرى إلى مصر، لكنه أراد أن تكون إقامته، هذه المرة طويلة حتى يتمكَّن من أن يعرض على الخديو مشروعه متكاملًا. إنه ليس مشروعًا بسيطًا. وكم من محاولاتٍ فشلت من قبل، بادعاء أن البحر الأبيض مستواه أعلى من البحر الأحمر. لكن حسب الدراسات التي قام بها؛ فإنه عرف أن البحرين لهما نفس المستوى، وأن البحر الأبيض لن يُغرق البحر الأحمر، إذا تم فتح قناة فيما بينهما.

وسعى «ديليسبس» إلى المسئولين في بلاده أن يسافر إلى القاهرة، كي يعمل قنصلًا عامًا للبلاد هناك. وعرض مشروعه على القيادات، فكان الجواب بالقبول، برغم أن «ديليسبس» مهندس مدني.

وسافر الرجل إلى القاهرة، هذه المرة كقنصل عام لفرنسا. وهناك كان اللقاء حميمًا بين الصديقين، وقال الخديو في أول لقاء: لم أنسَ مشروعك، لقد فكرت فيه دومًا فقط كنت أنتظر الوقت المناسب.

سكت الخديو قليلًا، وراح يفكر في الموقف؛ فهو رجل لا يتمتع بنفس القوة التي اتَّسم بها أبوه الباشا «محمد علي» الذي لم يكن في حاجة للرجوع إلى السلطان العثماني. الآن تغيرت الأمور كثيرًا، وعلى الحاكم الشاب الرجوع للسلطان العثماني.

قال القنصل «فرديناند ديليسبس»:

الآن أمامي مُتَسَّع من الوقت. المهم أن صاحب الجلالة الخديو قد وافق.

ولم تتأخر موافقة السلطان، وعمَّ البلاد إحساس عام بالفرحة. وانتقلت أحداث الرواية إلى منطقة السويس؛ حيث أن بداية الدراسة والحفر تثبتان في المقام الأول أن العمران سوف يصل إلى المنطقة. وسوف تتحول منطقة السويس إلى مدينة يحضر إليها المصريون من مختلف الأنحاء، وتتحول تلك الصحراء إلى عمران.

وحسب الرواية التي كتبها «سام دونكان»؛ فإن العائلات المصرية قررت الذهاب للمشاركة في بناء مدينة السويس، وحفر القناة من حولها، والغريب أنه ليست هناك إشارة إلى أعمال السُّخرة ليست هناك إشارة إلى أعمال السُّخرة التي عرفها المصريون أثناء حفر قناة السويس طوال عشر سنوات.

الرواية مكتوبة على لسان كاتب فرنسي يحاول أن يؤكد أن «ديليسبس» بطل قومي فرنسي؛ ولذا يحاول أن يبعد كافة السلبيات عن ما تمَّ من ممارسات غير إنسانية في تلك الفترة. ويعزي المعاناة التي عاشها العُمَّال المصريون إلى قسوة الطبيعة في منطقة السويس أثناء الحفر.

وحسب رواية «السويس» لـ «سام دونكان»؛ فإن ريحًا عاصفة هبَّت بجنون على المكان. فكانت شديدة الغُبار، واستطاعت أن تقتلع الخيام من أوتادها، كي تلقي بها وبالأسر التي تسكن فيها مع ذرات الرمال التي تتحرك داخل دوامة. ولم ترحم الكبار، والصغار معًا. ومات في هذه الليلة شديدة القسوة مئات من العُمال، حسب وقائع الرواية، ولم يستطع أحد أن ينقذ عزيزًا لديه؛ لأنه كان في حاجة إلى من ينقذه هو، وعليه فقد دُفِن هؤلاء جميعًا في موقع الحفر.

وتحاول الرواية أن تؤكد على إنسانية «فرديناند ديليسبس». الذي لم يكن هناك في تلك الليلة، لكنه ردد حين وصلته الأنباء السيئة: ليتني كنت معهم، ودُفِنتُ إلى جوارهم.

إذَن، فمن مغالطات الرواية أنها أكسبت الفرنسيين سمات إنسانية، على غير المعروف عن الفرنسيين، حين يمارسون الاستعمار، أو حين تكون في أياديهم زِمام الأمور. وقد أكَّد التاريخ أن الفرنسيين كانوا يودُّون الانتهاء من المشروع بأي ثمن. خاصة أن البلاد قد عرفت بعض القلاقل السياسية في بداية حكم الخديو «إسماعيل». وأحسَّ «ديليسبس» بالخوف من تكرار ما حدث مع الباشا الراحل «محمد علي»؛ لذا كان عليه أن ينتهي من المشروع مهما بلغت التضحيات. طبعًا من المصريين.

حيث تؤكد الإحصاءات أن أكثر من اثنتَي عشر ألف عامل لقَوا مصرعهم أثناء سنوات الحفر العشر في ظل ظروف العمل القاسية. فالمياه كان يتم الحصول عليها بصعوبة، ولم تكن جودة الطعام تكفي رجالًا يعملون تحت الشمس الحارقة صيفًا، والرياح القاسية شتاءً لساعات طويلة وأغلبهم كان يعمل بدون أجر.

والبطل في هذه الرواية بالطبع هو «فرديناند ديليسبس»، أما المصريون فهم شخصيات هامشية، خاصةً كل من الخديو «سعيد»، وأخيه الخديو «إسماعيل»، فهما بمثابة عوامل مساعدة لتحقيق الحلم الفرنسي. ف «فرديناند» هو رجل فرنسا في مصر.

وهو ينفِّذ سياسات بلاده باعتباره القنصل العام، وصاحب المشروع التاريخي الذي يجب أن يسهر عليه حتى يتم تنفيذه.

وفي أثناء السنوات العشر، عرفت المنطقة العمران، وبُنيَت الخِيام إلى جوار الأكواخ، وعندما اشتدت الظروف المناخية قسوةً، قرر الناس بناء البيوت من الطوب الذي يواجه الرياح. وشيئًا فشيئًا جاءت النساء لتسكن هناك إلى جوار أزواجهن. وأُقِيمت الأُسر، وجاء أوان الافتتاح، وأمر «إسماعيل» ببناء المدينة، بل ومدينة أخرى حملت اسمه، وتمَّ بناء المدينة الثالثة التي حملت اسم أخيه.

ومن المعروف أن «ديليسبس» قد بقي في المنطقة لسنوات قليلة فيما بعد، ثم رحل إلى أمريكا اللاتينية، كي يستثمر نجاحه. فقام بحفر قناة توصل بين المحيطين الأطلنطي والباسفيكي، عرفت باسم «قناة بنما».

والرواية التي كتبها «سام دونكان» دارت أحداثها فقط في مدينة السويس، ولم تذهب مع المهندس الفرنسي إلى بنما. ولعلَّ السينما الأمريكية قد وقفت فقط عند السويس، لكنها لم تنس للرجل أنه شقَّ قناة بنما.

الجدير بالذكر أن النقَّاد نظروا دومًا إلى رواية «السويس» لـ «سام دونكان» على أنها رواية استعمارية تخدم أغراض الاستعمار؛ لذا فإن أمثال هذه الأعمال لم تعِش طويلًا وسرعان ما اختفت من التاريخ.

ف. س. نايبول

«نايبول» ... إنه الكاتب الذي حصل على جائزة نوبل في الأدب.

* * *

اسمه الحقيقي «فيديا سوراج برساد نايبول»، وُلد عام ١٩٣٢م، في جزيرة ترينداد التابعة لبحر الكاريبي، وهو ابن لأحد البراهمة النازحين من شمال الهند. وقد عاش في بلاده حتى عام ١٩٥٠م، هاجر إلى المملكة المتحدة ليستكمل دراسته الجامعية.

نشر العديد من الروايات، وكُتب الرحلات منها: «عامل التدليك المُتصوف» عام ١٩٥٧م، و«شارع ميجل» عام ١٩٥٩م، و«منزل السيد بيسواس» عام ١٩٦١م، و«المحاربون» عام ١٩٧٥م، و«في منعطف النهر» عام ١٩٧٧م، وهي الرواية الوحيدة المنشورة له باللغة العربية في سلسلة روايات الهلال عام ١٩٩٢، وله أيضًا رواية منشورة في التسعينيات بعنوان «الهند، ألف ثائر وثائر».

في الفترة بين أغسطس عام ١٩٧٩م إلى فبراير ١٩٨٠م، قام «نايبول» بجولة في بعض البلاد الإسلامية، هذه الرحلة التي استغرقت ستة أشهر كان هدفها الأول هو التعريف بالمسلمين الذين لا يتكلمون اللغة العربية في آسيا، وذلك عقب الثورة الإسلامية في إيران.

وقد عاد «نايبول» من هذه الرحلة ليقدم كتابًا حول انطباعاته، والجدير بالذكر أن الكاتب ظلَّ يجتر الذكريات في كتبه التالية. ومن أشهرها «ما بعد الإيمان» يقول الكاتب أن آيات الله قد استقبله في إيران كشخص غريب ليس منه أي خطر، أما الباكستانيون فقد استقبلوه كباكستاني.

وهذا ليس كتابًا تحليليًّا عن الإسلام، ولكنه رحلة في بلاد إسلامية، يقوم بها رحَّالة يحكي مشاهداته عن الأماكن التي زارها والأشخاص الذين قابلهم، وهو لا يرحل إلى هذه

البلاد في رحلة سياسية عادية، بل هي رحلة دينية يتخذ له في كل بلد من هذه البلاد دليلًا يصوِّر له الأشياء بمنظوره.

والروايات التي كتبها ليست بها حدة الانتقاد؛ لكنها محاولة لوصف البسطاء في هذا العالم. ففي رواية «في منعطف النهر» يرى «نايبول» أن إفريقيا قارة تعجُّ بالقلاقل السياسية، والاجتماعية، فـ «سالم» الراوية، يعيش في جنوب أفريقيا من أصل هندي، ويقيم في نفس المنطقة أناس من جنسيات مختلفة من مسلمين وهندوس وبرتغاليين.

وهناك يقابل أحد عبيده القدامَى الذي جاء يطلب الإيواء وأن يعود إلى حمايته، ولأن «سالم» ليس بالرجل الثري؛ لذا فإنه يقوم بتسليم عبده السابق إلى صديق له يُدعَى «فرديناند».

يرى «نايبول» أن الناس في هذه البلاد لا يتغيرون بسهولة، ولا يعرفون الثورة أو التمرد، و«سالم» هذا ليس من أصل أفريقي، ولا علاقة له بالقارة السوداء. إنه مسلم يعشق الحضارة الغربية، وهو مزيج من عدة حضارات … يقول الراوية في الفصل التاسع من الرواية: «بدأت أدرك في نفس الوقت أن إحساسي بالهمِّ سببه أنني رجل مُنسَاق مع التيار، وبلا جذور. إنه إحساس زائف، ولم يكن حلمي بالنسبة لي بالوطن والأمان ليس أكثر من حلم للعزلة يتَّسم بالخطأ في التاريخ والغباء والضعف الزائد. إنني أنتمي إلى نفسي فحسب، ولن أسلِّم رجولتي لأحد.»

وبالنسبة لواحد مثلي؛ فإن هناك حضارة واحدة ومكانًا واحدًا مثل لندن أو مكانًا يشبهها، أي أن أي مكان آخر كان خداعًا للعقل. الوطن من أجل ماذا؟ هل هو من أجل أن أنحني أمام رجالنا العظماء أم للاختباء؟ وبالنسبة لأناس في مثل وضعنا، أناس اقتيدوا للعبودية؛ فإن هذه أكبر خدعة على الإطلاق، نحن لا نملك شيئًا، بل نعزِّي أنفسنا بمجرد الفكرة الخاصة بالرجال العظماء لقبيلتنا أمثال غاندي ونهرو، ولكننا نخفي أنفسنا. أي نقول: «خُذ رجولتي واستثمرها لي، أو خذ رجولتي وأصبح رجلًا عظيمًا من أجلي … لا … إنني أريد أن أكون رجلًا بنفسي.»

هل هناك كلمات تلخص حياة كاتب وفكره وهمِّه العام أكثر مما جاء في هذه الفقرة؟

وقد اعترف الكاتب في الرواية بفضل العرب على تطوير شكل الحياة في وسط وشرق أفريقيا، إلا أنه يقول إن المسلمين لن يُظلموا هناك طويلًا لأنهم تركوا مكاسبهم للاستعمار الغربي.

كينزة مراد: فيما يخص الأميرة الميتة

تنحدر الكاتبة الفرنسية «كينزة مراد» من أصول تركية، وهي تعيش في فرنسا منذ ميلادها عام ١٩٤١م، وقد اعتمدت كل شهرتها في الأدب الفرنسي المعاصر على تأليف رواية واحدة فقط نشرتها عام ١٩٨٤م تحت اسم «فيما يخص الأميرة الميتة».

* * *

الأميرة الميتة في الرواية اسمها «سلمى»، ماتت في نفس السنة التي وُلدت بها الكاتبة، وغير خفيٍّ أن «سلمى» هي أم الكاتبة التي قررت أن تؤلف رواية عن أمها الأميرة التركية المسلمة. تقول «كينزة مراد» أنها ظلت تبحث عن أمها من خلال الوثائق لأكثر من ثلاثة أعوام، واكتشفت أن هذه المرأة «سلمى» قد تربَّت في قصور إستانبول، فهي ابنة لأسرة من الحُكَّام العثمانيين الذين حكموا تركيا لقرون طويلة.

لكن الأميرة «خديجة» تم الحكم عليها بالسجن مع زوجها الذي حاول الاستيلاء على السلطة مع أخيه، وكان المنفى بالنسبة للابنة «سلمى» هو جزء من ميراثها بعد أن دخل والدها السجن.

لقد عاشت «سلمى» في ظروف قاسية أثناء وجودها في المنفى بلبنان، لكن الأب أُطلق سراحه، وتولى الحكم لعدة أشهر لم تطُل كثيرًا.

فما لبث «كمال أتاتورك» أن قام بثورته ضد العثمانيين، ووجدت «سلمى» وأسرتها أنفسهم في المنفى مرة أخرى.

في لبنان عرفت الفتاة المعاناة والهوان، فقد تزوجت من أمير هندي لم يسبق لها أن رأته، إنه رجل جذاب وساحر تعلَّم في بريطانيا وله أفكاره المُتحضرة، ومع ذلك فإنه رجل شرقي مُحافظ لدرجة غير محتمَلة.

هذا الرجل الهندي المسلم هو والد الكاتبة «كينزة مراد»، والذي تقول عنه: «كان أبي صديقًا للمهاتما «غاندي»، ولكنه كان لا يرغب أن ينسى الهنود حق المسلمين في أن تكون لهم مكانةً في الدولة الهندية الجديدة.»

وترى الكاتبة أن المهاتما «غاندي» كان هندوسيًّا متعصبًا، وأنه لم يكن عادلًا قط تجاه المسلمين.

أما «سلمى» فإنها كانت واقعة في حيرة بين حبها لزوجها الهندي، وولائها لوطنها الذي شهد اضطرابات فقد مات أبوها في سجون «كمال أتاتورك».

وعندما حملت «سلمى» ابنتها قررت ألا تنظر وراءها، وأن تُكرس حياتها لابنتها، ما لبثت أن انفصلت عن الزوج.

و«سلمى» امرأة مسلمة ترفض كل ما هو غربي، برغم أنها وَلدت ابنتها في مدينة سويسرية، تقول: «كانت تقدِّس كل ما هو مسلم، وتحب الأجواء الإسلامية التي تربَّت فيها، وعندما عاشت في الهند أحبت فيها التقاليد الإسلامية.»

وبعد حياة مليئة بالتقلُّبات بين الثراء والفقر، ماتت «سلمى» في شهر يناير عام ١٩٤١م، في أجواء شديدة البرودة، وهي لم تتعدَّ الثلاثين من عمرها، ودُفنَت في مقابر المسلمين في مدينة باريس التي كانت في تلك الفترة تحت الاحتلال النازي.

تقول الكاتبة إن «سلمى» ماتت حاملة معها ذكريات ستة قرون من السُّلطة والمجد، هي المرأة القادمة من تركيا. لم يحتمل صدرها الضعيف جو باريس الشديد البرودة، وتركت ابنتها وحيدة مع القدَر رضيعة صغيرة، دون أن تعرف أن هذه الابنة سوف تنشر حكايتها إلى العالم؛ فتحقق أعلى المبيعات في فرنسا طوال عام ونصف من تاريخ نشرها عام ١٩٨٤م.

والتر ماسون: الريشات الأربع

الكاتب والتر ماسون ينتمي إلى جيل الروائيين المغامرين الذين جاءوا إلى الشرق في مطلع نهاية القرن الماضي، وقضى في السودان عِدة سنوات إبان قيام الثورة المهدية التي بدأت في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ضد الاحتلال البريطاني للسودان.

* * *

ولأنه كاتب بريطاني ولأن الثورة المهدية كانت ضد احتلال بريطانيا للسودان؛ فلا يمكن أن نتوقع أن يقف الكاتب إلى جوار الثورة بالطبع؛ لكنه سوف يصورها عملًا همجيًّا، وأهمية هذه الرواية أنها تعكس وجهة النظر السلبية في منظور بعض الكتَّاب للمسلمين والإسلام.

ومن المهم التعرُّف على الرواية؛ لأن أعداء الإسلام من الذين يحاولون تشويه صورته يقومون بإنتاجها سينمائيًّا بين فترة وأخرى.

والشخصية الرئيسية هي الجندي البريطاني «جيم» الذي يتم إرساله إلى السودان في نهاية القرن التاسع عشر من أجل المشاركة في التَخلُّص من «المهدي» الذي أعلن الثورة ومن أتباعه، والثورة من مفهوم هذا الضابط الاستعماري تعني العصيان؛ ولذا فإن خطيبة الشاب تبلغه أنها تودُّ أن يكون مهرها المزيد من رءوس رجال «المهدي».

والضابط الشاب يرفض الذهاب إلى الشرق، بلاد الإسلام، ليس خوفًا من الحرب، بل لأنه يحب خطيبته ويودُّ البقاء إلى جوارها؛ ولكن الفتاة تمنحه ريشة كي تباركه في رحلته، وتطلب منه اللحاق بزملاء له أرسلوا إليه ريشات ثلاثة لتشجيعه أن يذهب معهم.

وفي السودان تكون المواجهة بين الجيش البريطاني والثُّوار، ولأننا أمام محارب بريطاني فهو ينظر إلى رجال «المهدي» باعتبارهم قوم متوحشين، وإلى مَن يساعدهم من السودانيين، وهم قِلة، باعتبارهم يعرفون مصلحة أوطانهم.

ونحن نتوقف عند هذه الرواية لإلقاء نظرة على ما كان يُسمى بالأدب الاستعماري، أي أن الذي كان يخدم القوات الأجنبية التي ظلَّت تحتل بلادنا لفترة طويلة من الزمن. وأخذت تحارب كأنما الشعوب المسلمة من الممتلكات الأوروبية ليس لها الحق في أن تطالب بحقوقها؛ ولذا فإن مثل هذه الروايات تبقى إلى الآن كدليل مؤكَّد على مرحلة سيئة من تاريخ الغرب.

وفي الرواية؛ فإن الشاب الجبان الذي يذهب إلى الحرب يعرف تمامًا أن مصيره الموت، ولكنه هناك يتحوَّل إلى بطل، ويصادق رجلًا اسمه «أبو فاطمة» يندسُّ بين قومه من أجل نقل الأخبار إلى القوات البريطانية، وكما نرى فهذا الرجل الخائن بالطبع يصبح معلِّمًا للجندي الذي يراه شخصًا نموذجيًّا من الطراز الأول.

وعندما يصاب الجندي الشاب؛ فإنه يعطي ريشته إلى «أبي فاطمة» من أجل أن يرسلها إلى خطيبته مع ملابسه المخضَّبة بالدماء دليلًا على تحوُّله إلى بطل مِقدام.

وكما نرى فإن المعاني هنا تُناقض الوقائع؛ فلم يعرف الإبداع الإنساني، أبدًا، أن الخونة أبطال، ولا أن الغُزاة لهم الحق في أن نتعاطف معهم.

وهكذا فإن كتَّابًا من طراز «والتر ماسون» قد نسيهم الزمن، وعندما يتم الحديث عنهم فلا بدَّ أن نذكُرهم من خلال منطقهم المغلوط.

جون لوكاريه: الطبَّالة الصغيرة

«تشارلي» هو اسم ممثلة بريطانية، اختارها عميل الموساد «كيرتز» من أجل القيام بعملية تجسس لاصطياد المناضل الفلسطيني «خليل» الذي حيَّر رجال الموساد في أوروبا بعملياته الفدائية، التي أقلقت مضاجع الإسرائيليين في كل أنحاء العالم.

* * *

حدث ذلك في رواية «الطبَّالة الصغيرة» للكاتب البريطاني «جون لوكاريه» المنشورة عام ١٩٨٣م، والتي أثارت الكثير من الانتباه والجدل حين نُشرت في فترة حاسمة من الصراع العربي الإسرائيلي.

الكاتب الذي زار معسكر «عين الحلوة» بعد الغارات العدوانية على لبنان في عام ١٩٨١م، أراد أن يعرف الكثير عن مناطق الصراع بين العرب وإسرائيل؛ فلم يكتفِ بالقراءة من الملفات أو تقارير الاستخبارات البريطانية، بل قرر أن يأتي بنفسه إلى منطقة الصراع، وأن يقابل أطراف المواجهة سواء الزعماء الفلسطينيين، أو رجال الحكومة الإسرائيلية في تلك الآونة. ومن أبرز من قابل: «أبو عمار».

بل إن «لوكاريه» راح إلى مناطق المخيَّمات الفلسطينية في جنوب لبنان وغيرها من أجل الالتقاء بأبناء المخيَّمات من الشعب الفلسطيني، ومن خلال هذه المقابلات استوحى شخصيتَي المناضلَين الفلسطينيَين «خليل» و«سالم» — من مناضل فلسطيني يُدعى «صلاح» — اللذَين قاما بالعديد من العمليات الفدائية، ووضعتهما الاستخبارات الإسرائيلية «الموساد» في مصافِّ الدرجة الأولى من المطلوب القبض عليهم أو التخلُّص منهم.

الرواية ليست عن الانتصارات الموسادية التي تحاول إسرائيل أن تهلل لها في الإعلام العالمي، بقدر ما هي عن المواجهة بين العقلية العربية والإسرائيلية في مواجهة الصراع. ولا

بدَّ من السؤال حول المصداقية التي يكتب بها روائي بريطاني دأبَ في رواياته كلها أن يمجِّد المعسكر الغربي وأتباعه، مثل إسرائيل، في كافة رواياته.

حدث ذلك منذ روايته الأولى الشهيرة «الجاسوس الذي أتى من الصقيع» المنشورة عام ١٩٦١م، حول هروب جاسوس غربي عبر حائط برلين، وكان بذلك أول من قام بمثل هذا العمل عقب أن بنى المعسكر الشرقي في تلك الآونة جدارًا يفصل بين المدينة الألمانية «برلين». وبعد نجاح هذه الرواية نشر «لوكاريه» مجموعة روايات تمجِّد استخبارات بلاده، وهذا أمر طبيعي للغاية في روايات مثل «جاسوس نقي»، و«نداء الموت»، و«تلميذ شريف»، و«عشيرة سمايلي» و«المنزل السري»، «المنزل الروسي» وأخيرًا «مدير الليل»، وذلك قبل أن يتجه لكتابة الرواية البوليسية في الفترة الأخيرة.

وكان علينا أن نترقب رواية «الطبَّالة الصغيرة» بالكثير من الحذر والريبة.

وبالفعل فإن العملية التي دبَّرها عميل الموساد «كيرتز» لاصطياد المناضل الفلسطيني قد تمت بنجاح وأمكن اغتياله، وهو في غرفة الممثلة البريطانية «تشارلي» لكن الكاتب سجل هدفًا شكليًّا لصالح الموساد في مقابل الكشف عن الفظائع التي يرتكبونها أثناء عملياتهم، والأساليب الوحشية التي يقومون بها، في مقابل الكشف عن أحقية الفلسطينيين في القيام بعملياتهم الفدائية.

فـ «خليل» لم يمت هنا كرجل «ضد»، بل هو شهيد يدافع عن حقه في العودة إلى وطنه، وقد بدا ذلك أثناء زيارة «تشارلي» إلى المُخيَّم الفلسطيني في جنوب لبنان.

تجيء أهمية رحلة تشارلي أنها ممثِّلة مبتدِئة، تبحث عن فرصة للنجاح، ويمكنها أن تتقمص أي شخصية. ويختارها الكاتب مُحطَّمة العواطف، لا تكاد تعرف شيئًا عن السياسة الدولية، وبالطبع القضية الفلسطينية؛ فهي ليست مع أو ضد، وهي لا تتحمس في البداية للقيام بهذه العملية، إلا بعد أن يهددها «كيرتز» بماضيها وفي مستقبلها أيضًا.

العملية التي عليها أن تقوم بها هي القبض على المناضل «خليل». والحكاية أن الموساد قد تمكَّنت من القبض على الشاب الفلسطيني المناضل «سالم» عقب إحدى العمليات الفدائية وليس الهدف بالنسبة لهم هو «سالم»، بل شقيقه «خليل» الذي لا يعرف أحد أين هو؛ ولذلك فلا بد أن تسافر «تشارلي» إلى المُخيَّم الفلسطيني باعتبارها صديقة لـ «سالم» وتسعى للتعرف إلى أسرته، من أجل استدراج «خليل» ودخول عالمه بعد معرفة مكانه.

ونحن لا بد أن نروي أسباب الرحلة التي قامت بها الممثلة البريطانية، لمعرفة مقدار التحوُّل النفسي والإنساني لشخصيتها عقب إقامتها في معسكر «عين الحلوة»، ولا يبدأ هذا

من فراغ، بل إن الفتاة تعلن مساندتها لقضايا التحرر الفلسطيني، وتنضم إلى مؤسسات تُناصر القضية الفلسطينية في أوروبا، وذلك قبل أن تقوم إحدى هذه المؤسسات بإرسالها إلى لبنان كي تتعرف على القضية عن قرب وبشكل حقيقي.

وتسافر «تشارلي» إلى الجنوب اللبناني وتصل إلى المعسكر الفلسطيني، وتفاجَئ بالرؤية الأولى، فأصحاب هذه الوجوه الذين يسكنون الخيام ليسوا إرهابيين كما تُصوِّر وسائل الإعلام الغربي الفلسطينيين دومًا بأنهم دمويون، وترقُب سُبل المعيشة هناك، وتعرف أن هؤلاء البشر البؤساء كانت لهم بيوت يسكنونها هناك، خلف الحدود الإسرائيلية، لكن قوات الاحتلال طردتهم، وصاروا يعيشون هنا كأنهم في بداية التاريخ. يعتمدون على المعُّونات التي تأتيهم من العالم عبر الأمم المتحدة.

وتتغير النظرة تمامًا بعد أن تلتقي بالفتاة الفلسطينية «فاطمة»، إنها فتاة على قدر عالٍ من الثقافة، وليست فتاة محدودة التفكير، مثلما يمكن لأي إنسان أن يتصور، وهذه الفتاة هي شقيقة كل من المناضلَين «سالم» و«خليل»، إنها تتكلم عن أخوَيها بإعجاب ومحبة. فبينما الشباب الآخرون في كل العالم يتمتعون بشبابهم؛ فإن أخوَيها يَنذران حياتهما من أجل توصيل قضية شعب متشرد مطرود من وطنه، إلى كل أنحاء العالم.

وأهمية هذه الزيارة بالنسبة لـ «تشارلي» وللقارئ أنها بمثابة تحول من الجهل بالقضية إلى المعرفة بجوانبها الحقيقية؛ فالفتاة البريطانية تتجول في عين الحلوة وتتحدث إلى الأطفال، والشيوخ، وأيضًا إلى الأمهات اللائي فقدن أولادهن في العمل الوطني، وتكتشف أن المعسكر يخلو تقريبًا من الشباب، مثل «خليل»، وأن هؤلاء الشباب لا بدَّ أنهم في مهام من أجل الوطن. إذَن فليس «سالم» الذي رأت الإسرائيليين يُعذِّبونه، حين أخذوها إلى حيث حبسوه، ليس إرهابيًّا مثلما صوروا لها، بل هو مناضل، برغم ما ردده «كيرتز» وتابِعه «جوزيف» الذي حاول أن يفرض عليها مشاعره العاطفية كي تقوم بالعملية على خير وجه.

ومُخيَّم «عين الحلوة» الفلسطيني الذي تزوره «تشارلي»، ليس سوى واحد من مخيمات فلسطينية عديدة متناثرة في لبنان والأردن، تشرَّد سكانه منذ سنوات طويلة، هي معسكرات بعيدة عن العمران البشري، حتى يظل كل منها محتفظًا بهويته الفلسطينية، فلا تضيع الشخصية ولا القضية، وهي معسكرات مُقامة في مناطق جبلية بعيدًا عن أي خدمات عمرانية، وقد صارت بمثابة الوطن المؤقت بالنسبة للفلسطيني الذي يذهب إلى الشتات، ثم يعود مرة أخرى كأنها الوطن البديل.

ولا شك أن الزيارة التي قامت بها «تشارلي» إلى المخيَّم، فريدة من نوعها في الأدب العالمي، وإذا كان أدباء العالم يأتون إلى المدن العربية من أجل التعرُّف على المدن والسياحة في دروبها؛ فإن زيارة «تشارلي» لم تكن بدافع السياحة، بل هي في منظور «كيرتز» شكل من أشكال التجسس، وهي في منظور «خليل» اندماج للمرأة البريطانية داخل الوجه الحقيقي للقضية، أما بالنسبة لـ «تشارلي» نفسها فهي تحوُّل وهي التي لم تكن تعرف شيئًا بالمرة عن الصراع في هذا الركن من العالم.

وأهم ما في الرواية، ونحن نتحدث عن صورة المسلمين في الأدب العالمي، أن المؤلف «جون لوكاريه» قد وصف المعسكرات كما رآها بعينيه من أجل أن يتعرف القارئ العالمي على حقيقة الحياة في المعسكرات الفلسطينية، المليئة بالبؤس والفقر والمتاعب الاجتماعية، ونحن نتوقف عند هذه النقطة لأن «لوكاريه» كاتب مقروء بشكل واسع الانتشار، كما أن العديد من رواياته تحوَّلت إلى أفلام ناجحة، ومنها رواية «الطبَّالة الصغيرة» التي أخرجها «جورج روي هيل» في فيلم عُرض كثيرًا في القنوات الفضائية.

وتغادر «تشارلي» المُخيَّم، وقد عقدت صداقة متينة مع «فاطمة»، وقد أحسَّت أن لها مشاعر مع أناس كان من المفروض أن تتجسس عليهم، لكن هل يمكنها أن تستفيد من هذا التحوُّل؟

بالطبع لا … فحين تعود إلى أوروبا، تدور الأحداث في اليونان باعتبار أنها الأقرب إلى الشرق الأوسط؛ فإن المرأة تجد نفسها أمام «كيرتز» الذي يهددها في مستقبلها كممثلة تحاول أن تكون ناجحة، وبالتالي فهي مغلوبة على أمرها، تنساق إلى العملية التي يدبِّرها «كيرتز» و«جوزيف» كمن ينساق إلى المقصلة دون أن يكون لديه الاختيار فيما هو مسيَّر إليه.

إذَن، فرغم أن الفتاة سوف تسوق رجال الموساد إلى مكان «خليل» الذي يتم اغتياله؛ فإن الكاتب قد حوَّل الدفة إلى الناحية الأخرى، حين صارت بطلته ضحية الابتزاز والمؤامرات، وهي تعرف جيدًا أن «خليل» ضحية حقيقية، وأن الأشرار هم رجال الاستخبارات الإسرائيلية، وتبدو في نهاية الأحداث منهزمة تمامًا، وقد تحوَّلت إلى حطام امرأة.

حاول الكاتب البريطاني «جون لوكاريه» إرضاء وسائل الإعلام الغربية، باعتبار أن الرواية موجَّهة في المقام الأول إلى قارئها، ولكنه من جانب آخر راح يُرضي ضميره ككاتب؛ فجعل القارئ يتعاطف مع «تشارلي»، وبدا رجال الموساد أشبه بالأشباح الخالية من الحياة، وهم في الرواية أدوات قتل فعَّالة، لم ينجحوا في التخلص من خصومهم، ولكنهم

أيضًا يقتلون كل المشاعر الحيَّة لدى المرأة البريئة. فاستغلوا براءتها، لابتزازها ودفعها إلى ممارسة كل ما هو ضد مبادئها وضد الناموس البشري.

من المهم الإشارة إلى أن رواية «الطبَّالة الصغيرة» قد صدرت في روايات الهلال في ترجمة كاملة قام بها الراحل «عبد الحميد فهمي الجمَّال».

جون كينتل: الدكتور إبراهيم

الكاتب البريطاني «جون كينتل»، هو واحد من الأدباء الذين رحلوا إلى الشرق، وقامت شهرتهم في الغرب على أنهم كتبوا عن هذا الشرق بشكل جمع بين الإيجابي والسلبي.

* * *

وحتى لا نكون مثل النعامة ننظر فقط إلى من يكتبون دفاعًا عنَّا دون النظر إلى من يروا فقط الصورة الكلية، سواء صحيحة أم لا، فإنه من المهم التعرف على «جون كينتل» وروايته الشهيرة «الدكتور إبراهيم»، فهي رواية مشهورة كتبها المؤلف في الثلاثينيات وقد تُرجمَت لدى العديد من الناشرين في أنحاء متفرقة من العالم، كما أنها تحَّولت إلى فيلم ألماني باسم «الطبيب» عام ١٩٥٧م.

الرواية تدور في مصر، على ضِفاف النيل، وبطل الرواية هو الطبيب المصري «إبراهيم»، الذي تربى في أعالي الصعيد في قرية إدفو، والرواية تدور على لسانه فيتكلم عن قريته بأنها تنام في أحضان الماضي القديم حين صنع الفراعنة حضارتهم هنا، وبنَوا المعابد ونحتوا التماثيل، و«إبراهيم» الطفل يحلم دومًا بالسفر إلى القاهرة، ويرحل إلى هناك عن طريق مركب نهري، وكأنما وسيلة النقل الوحيدة من المدن والقرى هي تلك المركب، وفي الطريق يقابل نماذج إنسانية متعددة، وهو لا يملك أن يردَّ الظلم عنها. مثل الفتاة التي يأخذها رجال الشرطة دون أن يعرف إلى أين يأخذونها، وفي القاهرة يلتحق «إبراهيم» بكلية الطب، ويذهب إلى مستشفى القصر العيني للتدريب؛ فإذا بالمكان مزدحم بالفقراء، والمرضى في عنابر ضيقة، والباشتمرجي هو صاحب السلطة الأولى على هؤلاء المرضى، يفرض عليهم الإتاوات من أجل تدبير الأَسرَّة لهم، وبسبب تصرفاته فإنه يحاول أن يعالج بعض المرضى، ويكون سببًا في بتر ساق طفل صغير.

ويحاول «إبراهيم» الطالب أن يقف ضد جبروت الباشتمرجي، وعندما يعجز عن كشف سلبياته أمام المسئولين، فإنه يقوم بضربه.

وعندما يتخرج «إبراهيم» طبيبًا يقابل حبيبته القديمة من نفس قريته إدفو، وقد صارت راقصة، يقرر «إبراهيم» أن يعمل في الريف حاملًا كافة المُثل التي تعلَّمها من أجل مكافحة الأوبئة، وأمراض الريف، ويواجه الرشاوي والمحسوبية.

وينجح الطبيب المسلم «إبراهيم» في إجراء عملية صعبة لزَوجة أحد اللوردات البريطانيين؛ فتذيع شهرته وتُتاح له فرصة السفر إلى لندن، لكنه يردد عندما يُعرَض عليه البقاء في عاصمة الضباب: «أنا لا أبحث عن الثروة ولا عن الاسم ... لقد تركت المستشفى الحكومي وجئت إلى قريتي من أجل أن أخدم أهلها ... إنهم في حاجة حقيقية إلى خدماتي.»

ومن المعروف أن الوصف الذي قدَّمه الكاتب البريطاني «جون كينتل» لمصر يكاد يكون صورة مطابقة تمامًا لتجربة الكاتب الكبير «توفيق الحكيم» في روايته «يوميات نائب في الأرياف».

جوزيف كونراد: لورد جيم

الكاتب البريطاني «جوزيف كونراد»، عاش بين عامَي ١٨٥٧م، و١٩٢٤م وهو من أصل بولندي وقد عُرف بأنه واحد من أكبر رجال البحر الذين عملوا في الإبداع الأدبي، كما أنه أحد الذين أضافوا الكثير إلى الشكل الروائي، وهو أحد أسماء قليلة في الأدب البريطاني، المكتوب في نهاية القرن التاسع عشر، والقرن العشرين والذين غيَّروا من صياغة الرواية ومكانتها، ومنهم: «جيمس جويس»، و«هنري جيمس»، و«فرجينيا وولف».

* * *

و«جوزيف كونراد» كاتب مقروء في العديد من اللغات، منها اللغة العربية، فقد تُرجمَت رواياته «قلب الظلمات»، و«نوسترومو»، و«زنجي زهرة النرجس»، ورواية «لورد جيم» إلى اللغة العربية.

وهذه الرواية الأخيرة «لورد جيم» تُرجمَت كاملة في جزئين في سلسلة الألف كتاب الأولى عام ١٩٦٥م، كما أنها تحولت إلى فيلم بريطاني أخرجه «ريتشارد بروكس» وقام ببطولته «بيتر أوتول» في نفس السنة.

أهمية هذه الرواية في الأدب العالمي أن مؤلفها بدا كأنه بعد أن كتبها بشكلها التقليدي راح يوزِّع فصولها مثلما يقوم لاعب الكوتشينة بتفنيط ورق الكوتشينة؛ فلا تعرف أيهم هو الفصل الأول ولا ما هو الترتيب الحقيقي للفصل الثالث، وعلى القارئ بعد أن ينتهي من قراءة الصفحة الأخيرة في الرواية أن يرتب أحداثها وفصولها كما يتراءى له، وبالتالي فلن يرتبها أحد مثل الآخر، ولا مثل الكاتب «جوزيف كونراد» نفسه.

وتدور الرواية حول القبطان البحري «لورد جيم»؛ فهو رجل ركب البحر طوال حياته، ولم يرتكب أي خطأ، لكنه مُصاب بعقدة خاصة، لا يمكن أن ينساها بسبب ما حدث لبعض المسلمين على يديه.

الحكاية أن البحَّار يعمل قبطانًا لمركب يتنقل بين بلدان شرق آسيا، تلك المنطقة التي كانت في النصف الأول من القرن العشرين واقعة تحت سيطرة بريطانيا.

وقد عاش هذا البحَّار مستهترًا طوال حياته، وكانت سفينته الصغيرة تفتقد لأقل قدر من الأمان الذي يجب أن يشعر بها ركابها وذات يوم وافق على نقل مجموعة من المسلمين من ميناء جاكرتا بإندونيسيا في طريقهم إلى الأراضي الحجازية، من أجل قضاء شعائر الحج، لكن عاصفة شديدة هبَّت فوق المحيط؛ فلم تستطع سفينته المتهالكة أن تقاوم الرياح العتية.

وأخذت تتأرجح بقوة فوق الأمواج، ولم يتمكن الحُجَّاج من أن يفعلوا لأنفسهم شيئًا سوى الصلاة والابتهال إلى الله، عز وجل، ولكن السفينة مالت بهم وغرقوا جميعًا في أعماق البحر قبل أن يصلوا إلى مرادهم.

هذا الحادث يغيِّر تمامًا من مسار حياة القبطان، الذي لم يتمكن من إنقاذ هؤلاء الضحايا كما رآهم يغرقون أمامه، دون أن يملك أي وسيلة للتصرف؛ لذا فإنه عندما يصل أول ميناء بعد أن توقفت العاصفة عن الهبوب قدَّم نفسه إلى السلطات من أجل محاكمته وأدان نفسه، رغم أن السلطات حاولت تبرئته، بحجة أنه كم من سفن تغرق بقوة العواصف وكم من غرقى غاصوا في الأعماق بفعل قسوة الريح.

ويصف «كونراد» المسلمين الإندونيسيين الذاهبين إلى بيت الله الحرام، كقوم مسالمين يتكلمون قليلًا ولا يثيرون أي ضجيج مثل الكثير من الرُكَّاب الذين اعتاد أن يصحبهم معه في رحلات أخرى.

لذا فإن «لورد جيم» يشعر بعقدة الذنب مرتَين، أنه لم يعتنِ بالسفينة القديمة التي أركبهم فيها، ولأنهم كانوا بالفعل ضحايا أبرياء لم يفعلوا شيئًا ليستحقوا هذه النهاية.

والرواية كلها تدور حول إحساس القبطان بعقدة الذنب التي أخذت تطارده طويلًا، وكان يردد دومًا عبارات الندم عما فعل، وأيضًا كلمات الأسف عما حدث لركابه من المسلمين.


هنداوي